

محمد الغزالي

آخر الأسرار

رواية

منشورات الغزالي

الطبعة الأولى مارس 2007

Tous droits réservés pour tous pays.

© Editions GHAZALI

Contact : www.ecrivainsarabes.ifrance.com

email : mghazali@hotmail.fr

Tél. : 33 + 6 25 30 38 13

Dépôt légal : Février 2007

الإهداء

الى ابني أكثم وابنتي زكية
اللذين الهماني كيمياء السعادة

1

حينما لاح ضوء الشمس من خلال الضباب الكثيف تراءت صور غريبة
امام مخيلة السندباد فرأى نفسه سابجا في الفضاء كأنما هو على بساط الريح
يحملة أنى شاء.

كان خفيف الروح يشعر بالرضى يفعم قلبه ويعتريه شعور يكاد يفوق السعادة
المرجوة وسرت في بدنه قشعريرة خفيفة محببة غمرته نشاطا وحزما ففرك يديه
وسرح نظره في الأرجاء وود لو أزفت ساعة الرحيل وقال في نفسه :
- لم الانتظار ؟
ثم تساءل بغبطة :

- أتراني قادرعلى اتمام المهمة على احسن وجه ؟.

وظل زمنا يسيرا يتأرجح بين الشعور الحاد بالفرح وبين التساؤل الجارف حتى
استقام مزاجه وصفا وطابت نفسه فطفق يراها في خضم المواقف الصعبة
والاسفار المضمنية والمغامرات التي لاتخطر على بال ولم يشعر الا وباتريسيا
تربت على كتفه وتهمس في أذنه بصوتها المحبب الى نفسه :

- ماذا تفعل امام النافذة. أبدأت الرحلة أم أنك تفكر في إرجائها كما كنت تفعل دائما ؟!
أجابها بابتسامة عريضة ثم أردف :

- يا عزيزتي قلت لك مرارا بان لكل اجل كتاب فاذا حان الوقت فلا انتظار ولا
تساؤل ثم التفت نحوها قائلا :

- صحيح انني ترددت كثيرا لكنني الان سافرت بفكري وخيالي ولم يبق الا
الانطلاق

- حسنا أنا سعيدة بانك ستحقق ما كنت تصبو اليه من زمن بعيد وكلي ثقة في حسن تصرفك وحدة ذكائك.
- شكر اعلى مجاملتك اللطيفة لكن لا تنسي ما طلبته منك. مهمة واحدة تقومين بها بدلا عني. لا شيء الا هذا.
- لا تزعج نفسك بهذا الامر. ساقوم بمهمتي على أحسن وجه وأكمله.
- وتراءت اذاك أمام السندباد مسالك وعرة وطرق ملتوية وجبال شامخة وسهول شاسعة وبحار متلاطمة ودروب متشابكة وأصقاع مترامية فلاذ بالصمت والسكون متنقلا بينها كما لو كان نسرا ملكيا ملحقا في الفضاء غير عابئ بما يجري تحته على الارض.
- ابتسمت باتريسيا ثم جذبتة من يده :
- هيا... دعنا من هذا الآن... لا يجدر أن تصل متأخرا.
- مالي أنا وهؤلاء... ينتظرون كما ينتظر غيرهم...
- لا... إذا لم تحضر في الوقت المحدد... قد تضيع الفرصة على الآخرين.....
- أية فرصة... أنا لا فرص لدي... أنت فرصتي الأخيرة.
- سار مدة خالها دهرا واستقر به المقام في محل صغير. سلم بصوت عال كعادته وأدار بصره في الأرجاء ثم قال :
- غريب... أنت تعرف ما أريد !
- سكت غريب ثم هب واقفا :
- سأحضر القهوة، إنها من النوع الراقي... هذا ما جاد به علينا الأسعد...
- حسنا... لا بأس.
- وعاد غريب إلى مكانه وهو يمسّد شعره الأبيض المنفوش وحك أرنبه أنفه ثم أثبت نظاراته وابتسم فافتّر فمه عن أسنان بدأت تتاكل :
- انظر إلى هذه الصورة على شاشة الحاسوب.
- ماذا أيضا... و....
- لا تتعجل... إنه النسر الملكي... والقمر ليلة تمامه وأرضنا الطيبة المعطاء وشمسنا نبع الدفء والحياة... وأنا بصدد تجويد أجنحة النسر وقوادمه حتى

يظل العالم بالبأس والقوة...
 كاد السندباد ينفجر ضاحكا لولا بعض حياء ثم قال :
 - لوحة زيتية أو هي مدعومة بالحاسوب... إنها صنف فيه إبداع وفيه ضياع
 وفيه إشعاع. وأين ستعرض هذه اللوحة ؟
 رد غريب وعيناه ضائعتان ويدها مرتجتان ووجهه شاحب :
 - أه... القهوة أولا... انها جاهزة..
 غريب يأتي بالقهوة وتعبق الرائحة تنعش النفس وتبعد رائحة الورق
 المتناثر في كل مكان.
 يجلس غريب أمام شاشة الحاسوب وهو يعبث بالفأرة ثم يثبت نظره الحاد
 في وجه السندباد :
 - ترى إذن، أنام بين حاسوبين وطابعتين وأوراق كثيرة وهذا النسر الذي
 تسلط علي أخيرا مع أنه لم يكن نسرا... في البداية لم يكن شيئا... كانت
 الفأرة بيدي أقلبها كيفما اتفق... ودارت الفأرة حول نفسها دورات، ومال
 رأسي وملت معها ثم قفزت وطاررت فأصبحت نسرا ملكيا.
 أظهر السندباد قليلا من الامتعاض وعض شفته السفلى ثم مسح شاربه
 وأثبت قلنسوته الجلدية السوداء وهو يقول :
 - هي تقول لي بأنها سامية... وأنت تقول لي هذا هو النسر، ومازن سلام
 قال أمس إنه لا يعشقها بل يتغزل بها... قاطعه غريب :
 - انتبه... اترك هذا الأمر سرا بيننا... إياك والناس...
 - اعرف أنك إنسان لا يطمئن كثيرا لغير الأصدقاء وهذا لا يخفى علي...
 - هو ذاك... هو ذاك... حكاية النسر... انسها... ولا تسألني بعد الآن.
 - وهذا ما قالت له لي باتريسيا أيضا... إنه سر ويحسن بك حفظه... وهذا ما
 قاله لي مازن سلام وهو يقرأ لي قصيده الأزلي : «كم قلبا قَلْبَتْ قَبْلَتْه» الذي
 سيلحنه له «مهران» ذلك الموسيقي الرائع الذي هو في الحقيقة طبيب أسنان
 وأنا أدعوه مازحا «طبيب القلوب».
 أبدى غريب بعض الحنق وقال بصوته المتهدج كأنه يحشرج :
 - مالي أنا والآخرين... أنا لا أريد تكريس الرداءة ولا أتكلم عن أشياء لغرض

نقدها... مدام بوفاري كتبها فلوبيير ليشهرّ بالعلاقات المشبوهة، فأصبح الناس يظلمون بحياة كحياتها وككرس الكاتب من حيث لا يعلم نسقا من الحياة كان ينكره ويريد محوه.

- دعني من مدام بوفاري واحك لي عن النسر... إن جناحيه يرفرفان في دماغي، وعينيّه تضيئان قلبي بنشوة وانعتاق.

ابتسم غريب فأصبح وجهه الشاحب كله ابتسامة صفراء لا بداية لها ولا نهاية، غرقت عيناه في بركة من الدمع واتسع فمه كبرّ لا قرار لها، وقف شعر رأسه. مسح أنفه براحة يده ثم قال :

- النسر جاءني في المنام. في الليلة الأولى نقر عينيّ وامتص ماءهما... في الليلة الثانية خطف قلبي ومزّقه وابتلعه... وفي الليلة الثالثة نهش دماغي وذاق قليلا من مخي ثم عافه ونثره في الجو... واللييلة الرابعة لم أدق طعم النوم... كانت الفأرة رفيقي ومصدر الهامي وملادي... الدبق المنبعث من الطابق السفلي هو الهواء الذي أتنفسه... الورق الندي هو الأنيس... والقهوة المرة التي جاد بها عليّ الأسعد هي الطعام والشراب. ذات ليلة، طرقتي النعاس فجاءني حانقا غاضبا في عينه صفرة الموت وكاد يغرز قوادمه في وجهي فأطلقت صيحة عظيمة وأفقت مذعورا والعرق ينزّ من وجهي وكامل بدني. ومرة أخرى صار شعاع عينيّه كقبة حمام وابتلعني فوجدت نفسي أسبح في بركة من اللحم ولما أردت الهروب رأيتك أنت تدفعني بقوة وتجلدني بسوط طويل لاهب.

لمعت عينا السنبداد وقال في نفسه" : بدأ غريب يفهم لغة الغرياء "ثم أجاب :

- ولذلك اشتد عجبي وأنكرت ما رأيت وشدت الرحال وكان ما كان...
كاد قلب غريب يقفز من مكانه وازدادت دقاته نبضا وقفز الدم إلى وجهه وقال :

- سنبداد... النسر نسري وأنا أعرف كيف أعامله... أنت لم تسمع، ولم تر، ولم تأت لزيارتي، ولم تشرب القهوة...

ابتسم السنبداد. وضع يده على كتف غريب وأجاب :

- أتركك تعود إلى الشاشة... أنا ذاهب... أين خرجي ؟

- خرجك ! أنا لم أره...
- هون عليك...به كتب وأوراق...
- نعم... هو ذاك !
- لا تشغل بالك بما فيه.
- وبما ليس فيه.
- نعم... إذن... نحن متفقان.

ومضى السنبداد فأغلق غريب الباب وهو يدير المفتاح مرتين ثم هرول إلى الداخل وجّهز قهوة أخرى وعاد إلى الشاشة.

الفأرة ترقص فرحا وذهولا، يده ترتعش، وجهه يشحب، عرقه يشخب، أسنانه تصطك، شعره أشعث، حدقتاه غائرتان. فكر "الباب مغلق والشارع مقفر، النسر يحلق والفأرة تلهو وتعبث وفراشي كبئر لا قرار لها... ماذا أفعل هنا ؟ من يساعدني على تحمل هذا البؤس المرير... وهذه الوحدة القاتلة، أين الأصفياء، أين أهلي، أين أمي، أين أرضي، أين أحلامي، أين أخي، أين طموحي !؟

هطلت دمعة أغرقت أحزانه في حزن اللحظة رأى من خلالها خلانه وأهله وشرب منها حتى ارتوى بطعم الفجيعة تناول الفأرة بيده وابتسم يخجل وتاه في الفضاء الأزرق والسحب الدهماء يتابع النسر المحلق في الجو حتى طلع الفجر وبدأ أزيز السيارات يتصاعد وخطو المارة يزداد كثافة.

2

يحط السندباد رحاله في «قاعة أركوم» ويسلم بصوت عال وهو يفرك يديه ويحسّ بالظفر والراحة ويقلب نظراته الثاقبة هنا وهناك كمن يبحث عن شئ ضائع أو يتوجس خيفة من خطر داهم من مكان مجهول. بدا بسرأويله الواسعة وحذائه المغربي وشاشيته الحمراء المثبتة على رأسه بإحكام كأنه مأذون متأهب لعقد قران. رمى بخرجه الثقيل جانبا وجذب ورقة خفيفة عبأها بالتبغ ولواها وطواها وحبكها بلباقة ثم فركها بلطف وأشعلها ثم قال :

– على أية حال. أنا عزمت أمري وقرّ قراري على القيام برحلة على خطى ابن بطوطة.

- أنت تهذي أو لعلك محموم أو حالم..
- هذا لا يهمنا اليوم لا من قريب ولا من بعيد.
- ارحل كما لذّ لك وطاب.
- في السفر فوائد لا تحصي ولا تعد.
- لك الحق، فاكْتساب اسم السندباد لا بد له من مبرر حتى يصح المثل وينطبق الاسم على المسمى.
- رد السندباد عليهم باسمًا وهو يمسح شاربيه ويسعل فيرتد السعال إلى صدره محدثًا دويًا خشنا :
- أريد أن أفهم. لماذا قام ابن بطوطة برحلته. ألنفسه أم للآخرين ؟ ثم فكر :
- ”أما أنا فسأستعين بالنسر الملكي ذي الجناحين المشرعين والرؤية الثاقبة

والسرعة الفائقة، وسأهبط متى أردت وفي أي مكان شئت وفي قمم الجبال الشاهقة والصحاري الممتدة والظلال الوارفة وفوق السطوح".

وسرت في بدنه قشعريرة خفيفة لطفت طبعه ولينت مزاجه فأخذ يندن بصوت مسموع غير عابئ بالآخرين. فشدّه سفيان من طرف لحيته وصاح فيه، وعيناه الصغيرتان تلمعان وأنفه المحدوب الطويل يرتعش وشاربه الخفيف يتراقص :

– دعك من هذا الهراء، النسر ليس نسرك. النسر نسري ولا فائدة ترجى منه. ثم من سمح لك بالحديث عن النسر ؟ اسمع يا سندباد لا تعد إلى هذا الحديث، ولا تظن أننا بلهاء.

ابتسم السندباد وقال :

– كلكم يريد النسر، أو لعلكم أنتم النسور. انظروا إلى حالكم التعيسة ويؤسكم الفاجع وضياكم المؤلم.

رد عليه سفيان :

– أنا أفضل الصمت في هذه الأحوال !

بادره خير الدين الذي لقبه العصفور بـ«الموسوعة» :

– هو على حق. حالنا أصبح مضحكا. كل الأمم لها مشروع إلا نحن. ماذا خططنا للمستقبل. كيف سنواجه القرن القادم. تصور حتى إيران درست خطة شبه واضحة للدخول إلى العالم الجديد. أصبحنا مهزلة الجميع. أنا أشعر بالخجل الشديد لكني لا أفقد كرامتي ولا أفقد أملي.

قال السند باد :

– صحيح هذا الكلام. هل نبدأ بالفرد أي أبدأ بنفسي أم نحاول توجيه الجماهير. وما هي الجماهير أليست في النهاية أفرادا متلي ومتمك ؟

– هو كذلك، قال خير الدين. نحن لم تنفع معنا لا الرؤية إلى الفرد ولا إلى الجماعة. داؤنا دوي ومرضنا عضال وقلوبنا ميّنة. يا للتعاسة. بالله اتركوني ولا تعيدوا على مسمعي هذه الحوارات الجوفاء.

قاطعها سفيان :

– علينا القضاء على العدو أولا. إنه أكبر عقبة أمام تقدمنا ورخائنا.

إذا لم تحرر فلسطين، فلن يتحرر الإنسان العربي وبالتالي لن تتحرك الشعوب. علينا القضاء على هؤلاء الصهاينة الأغبياء.

انتفض السندباد :

- أغبياء ! ماذا تقول ؟ هم يأكلون قوتنا ويشربون ماءنا ويريقون دماءنا ويستولون على تاريخنا وأثارنا وتقول بأنهم أغبياء.

- نعم. هم أغبياء. ألا تدري انهم ضائعون. بضعة ملايين وسط ملايين تعد بالمئات. هم لن ينعموا بالدعة والأمن طالما هم متغطرسون سادرون في غيهم وجهلهم. لقد حاولوا كل الطرق لتهميشنا ومحونا من الخارطة والقضاء على قوانا الحية لكنهم فشلوا.

رد خير الدين :

- هذا صحيح نسبيا. المسألة مسألة وقت. وقد ثبت أن استعمال العنف من قبل الإسرائيليين لا يجدي بل هو يذكي روح الحماس والاستشهاد لدى الفلسطينيين ويحضرهم على تكثيف العمل الفدائي.

- هو كذلك، أردف السندباد، ثم قال في نفسه : "حتى باتريسيا ضاقت ذرعا بالصهاينة وبعطرتستهم مع أنها يهودية ولها مطمع في القدس" وواصل :

- إرادة الشعوب لا تقهر.

- هذا لا يكفي. رد سفيان ثم واصل :

- يجب إبادتهم عن آخرهم. إنهم يقتلون الأطفال في وضح النهار، يحطمون البيوت على رؤوس الشيوخ والنساء دون شفقة أو رحمة ثم يبيكون ويتباكون ويذرفون دموع التماسيح لاستدرار العطف الذي لا يفهمونه.

قال خير الدين :

- الملايين التي تكلمتم عنها لا تفعل شيئا والدليل أنها لم تحرك ساكنا. المشكلة لم تعد عدوية. التكنولوجيا هي الأهم والغلبة لمن يملك السلاح الأمضى ورغم ذلك فلا أظن بأن الإسرائيليين حشروا أنفسهم في دوامة كمن يريد حماية نفسه بأن يضعها في زجاجة فتقلب الأمور ويصبح سجينها كالمارد في القمقم.

ضحك السندباد :

- إنها صورة رائعة. القمقم والمارد ثم فكر : "أما أنا فلا شأن لي بكل هذا. سأسافر مع نسري الأثير وأجول وأصول في أصقاع الدنيا. قد أعود بعد سنة أو سنتين، وإذا ما طاب لي المقام ببلدة أو قرية أو قبيلة أبقى هناك وسأكتب كتابا عظيما من ألف صفحة حتى أنهى مسألة الرحلات وأضع لها حدا حاسما".

أردف سفيان ذو الشارب الخفيف :

- دعونا من المارد والقمقم. على الشعوب أن تتحرر أولاً حتى تتمكن من النهوض بنفسها. أنتم ينطبق عليكم المثل "كما تكونوا يولّى عليكم". الآن الثورة ثورتان. عدم ترك العدو يعبث بمقدساتنا من ناحية ثم المعركة العلمية والثقافية. نحن لم نقرأ تاريخنا كما يجدر بنا أن نفعل. عشرة كتب يمكن أن تغنينا عن كل كتب الدنيا. لا ماركس ولا أنجلز ولا فرويد ولا هم يحزنون. لا جدلية مادية ولا شيوعية راديكالية. ولا إشكالات ولا فلسفات.

نظر السندباد محتارا :

- ماذا إذن؟ هذه النظرة غريبة. تريد أن تجرد الشعوب العربية من انفتاحها على العالم وعلى الحريات والتكنولوجيا الحديثة؟!

- لا إفراط ولا تفريط، قال خير الدين. الغرب نفسه ليس قدوة وجرائمه لا تحصى ولا تعد. إنهم مع علمهم وبحوثهم يعيشون كثيرا من الزيف والضياع. أعني إذا ما تحقق لديهم الرخاء المادي فهم في الأخير تائهون وهذا ما يصيب الكثير من الشيوخ والعجائز واليافاعين باليأس والأكتئاب. وتقول دراسة بأن نصفهم مصابون بعوارض اكتئاب وصرع وتوهّمات، وعلى أية حال فالذين تلفظهم المدينة وتلوّكهم ثم ترمي بهم كثر، ويفوق عددهم عدد الذين يعيشون في البلاد العربية، لا بد أن نقر بأننا أضعنا فرصا عديدة ولا نزال، وهذا ليس محض صدفة...

قاطعه سفيان :

- أنا وأفاقك. إنهم أصل كل بلاء. زوجتي، وهي من هي في الذكاء والفهم، حكّت لي عنهم الكثير وهي غالبا ما ترثي لحالنا خاصة بعد أن زارت بعض

البلدان العربية ورأت ما رأت. في إحدى المرات قالت لي : "إن ما تروجه بعض البلدان العربية عن نفسها يخالف كثيرا ما يعيشه الناس. الأجساد تلبس اللباس الإفرنجي والبطون تأكل الطعام الإفرنجي والعيون تشاهد الشاشات الأجنبية لكن العقول لا تزال متحجرة أو هكذا شاء لها من شاء. الناس يلهثون. قليل منهم نجح في ربح بعض المال فأضاعه في بناء الشقق الفاخرة والمساكن المسيجة والسيارات الفارهة المستوردة بالعملة الصعبة. لا أطيل عليكم.. أنا ذاهب لقضاء شأن من شؤوني. إلى اللقاء يا أصدقاء. نهض بقامته المديدة. نحيف إلى حد التخشب وعيناه الصغيرتان تتراقصان وشاربه الخفيف يتربّع على وجهه الناحل، وبدا على الجهة اليمنى من قسبة أنفه جرح جديد بدأ يندمل. وفي الباب قال بصوته القوي :

– اتركوا السندباد وشأنه. فليرحل. الرحيل أفضل من البقاء في هذه البقاع. ماذا سيجني من بقاءه هنا في هذه المدينة المأزق ؟

3

جلس صالح بجانب صديقه جابر ميمون. زفر زفرة قصيرة ووضع يده على جبهته العريضة البيضاء ثم قال :

- وماذا ستفعل الآن ؟

- لا أدري. قد أغلق المطعم وربما أبيعته.

- وربما تبيعه أو تغلقه أو لا تغلقه.

- نعم... لا أدري.

ابتسم قليلا ثم أضاف :

- هات لي كوكا فأنا عطشان.

- حسنا. أيها المتأمرک المدلل

- أما أنا فأنصحك ببيعه والبحث عن شغل آخر.

- هو ذاك... أنا مللت وتعبت. في الأيام الأخيرة كلما رأيت سكيلا متمايلا خلت نفسي مسؤولا عنه. خاصة إذا كان عربيا. والبارحة عشت كابوسا كاد يودي بحياتي. في آخر لحظة منه، رأيت كأنني أكل حجرا، ورجالا أشداء ورائي يضربونني ويحسونني على الأكل. أردت أن أتقيأ فما قدرت. كنت فزعا والدوار يأكل أمعائي، وثعبان يتقدم وينهشني. وأحيانا بصوت مرعد يردد كلمات لا أفهمها. ثم تبينت أنه يقول : "لا تخف. أنا سكران". وكانت رائحة الخمر تفوح بشدة مع أنني لم أشرب البارحة خمرا. الزبائن شربوا خمرا ومنهم من استبدت به النشوة فكسر كأسا وقال إنه سيدفع ثمنها مضاعفا. أخي صالح أرأيت ما أعاني !؟

فغر صالح فاه، مسد بعض الشعر الذي بقي عالقا بصلعته وقال في شبه همس :

– الحرام يذهب إلى الحرام والحلال يأتي بالحلال.

قاطع جابر ميمون :

– وأنت، أخي صالح، هل شربت خمرا في حياتك ؟

بقي ينتظر إجابته وهو مندهش من سؤاله المباغت. أدار صالح رأسه والتفت إلى كل الجهات وتحنح قليلا :

– أما الخمر فلا. ولكن مرة شربت البيرة الألمانية.

سكت جابر وكاد يطلق ضحكة محبوسة ولكنه أمسك. ثم أضاف صالح بصوت خافت في همس :

– شربت قارورتين. أحسست بعدها بالدوار ومن حينها عرفت بأن الخمر لا تجدي.

فكر جابر : "هل البيرة ليست خمرا. ربما يقصد أنه لم يشرب النبيذ".

– على أية حال عفا الله عما سلف. بع هذا المطعم وسترى أن الحل سيأتي والرزق على الله.

– هذه المرة لن أعود. بعد يومين أقفل المطعم وأتخلص من هذا الكابوس المزعج. أه لو علمت أمي بأنني أبيع الخمر، وقتها تكون الكارثة. لقد عاهدت والدي رحمه الله ألا أقرب هذه الأشياء. ووفيت بعهدي. ولم أبع خمرا أبدا إبان حياته. فلماذا وجدت نفسي، بعد رحيل والدي، في هذا المطعم اللعين. كم أشعر بالذنب ! من يريد أن يسكر فليذهب إلى مكان آخر. أنا لست مجبرا على مناولته الخمر فيكسب هو النشوة وأكسب أنا الذنوب.

ربت صالح على كتفه وقال :

– أنا أثق بك. هيا ضع لي صحن من المرق وخبزا فقد أخذ مني الجوع كل مأخذ.

نهض جابر وهو يقول في نفسه : "ليت كل الزبائن مثل صالح، يأكلون في هدوء يقولون الحمد لله يدفعون ثم يذهبون راضين قانعين. لكن هيهات. أنا أغلب زبائني أشرار. وأقلهم يشرب عشرات القوارير".

بينما هما كذلك، طرقت الباب رجل وامرأة.

- مساء الخير

- مساء الخير. هل بإمكاننا الجلوس؟

- طبعاً. أهلاً وسهلاً.

- شكراً.

ناولهما قائمة الأطعمة، وعاد وفي يده صحن به حبات زيتون كبيرة لامعة، وضعه بينهما.

ناداه الرجل ذو اللحية الشقراء :

- لقد اخترنا. أنا أريد طبق الدجاج المحمر والزيتون، وهي اختارت صحن الباذنجان والبطاطا بلحم العجل.

وصمت لحظة، ففكر جابر وقال في نفسه : "ليته يطلب زجاجة نبيذ فهي ربحي الحقيقي".

فتكلم الزبون :

- نريد أيضاً زجاجة نبيذ بوردو. مع الشكر.

شعر جابر بارتياح ومضى إلى المطبخ يهيب الأطباق، بينما كان صالح يتأمل الموقف ويقول : "هو يريد بيع الخمر أم لا"؟

وتعالى في تلك اللحظة صوت أم كلثوم "بهذه ليلتي وحلم حياتي" وملاً أرجاء المطعم بما يشبه السحر.

خرج الزبونان فأطل فارح بقامته المديدة ووجهه الأسمر وأقبل يعانق

صديقه جابر وكله بهجة وحبور ومد يده مسلماً على صالح، ثم التفت :

- كم أنا سعيد، منذ مدة أنتظر هذا اليوم، وهذه الموسيقى الرائعة.

- لا تتعجل. لقد وجدت الشريط الذي حكيت لي عنه. أتذكر الشريط الذي سجلته منذ عشر سنوات وتلك السهرة العظيمة التي أفضت بنا إلى الفجر.

كم هو سريع مرور هذا الوقت !

- هات، ضع الشريط. لا أكاد أصبر على سماع هذا الصوت الضائع مني طول هذه المدة. إنه ساحر هذا المغني.

وضع جابر شريطه فانداح الصوت متصاعدا :
 "أنا خائف، ليس من قلبي بل من الذي يسكنه
 أنا خائف على الذي يسكن قلبي، من قلبي" ...
 ردد فارح معه ولمعت عيناه وسوى نظارته وهو يقول :
 - جميل صوته يا أخي جابر. لقد ردني إلى تلك الفترات الجميلة.
 - هو كذلك، لكن أين كنت ؟ ابتلعك الشغل ؟
 - نعم... أنا اشتغل كثيرا هذه الأيام.
 ثم التفت نحو صالح :
 - تصور أنني في الليل أفتح قناة بها مصارعة الثيران، ولكن دون صوت وأظل
 أشاهد المصارعة. أتعرف ماذا يعجبني !؟
 واصل حديثه وعينا صالح ثابتتان في شبه زهول :
 - يعجبني الثور حين يفتح الباب، فينطلق المسكين في كل صوب لا يدري
 أين يتوجه، وبعد ذلك يصيبه الإجهاد قبل أن تخرق جلده سهام المصارع
 المقدام.
 فكر صالح : "يا لها من رياضة، ويا لها من هواية ؟ الثيران...
 قال جابر متوجها إلى صديقه فارح :
 - خذ هذه الكأس، إنه نبيذ معتق على نخب الصداقة.
 ثم ضحك فاحمر وجهه وبدت أسنانه ناصعة علق بها بعض التسوس
 الأسود، مسح وجهه بيده فلمعت صلعته الكبيرة وقال :
 - أين أنتم أيها الزبائن ؟
 ردّ فارح :
 - ألم أعجبك ؟ زيون ولا ككل الزبائن ! اشرب على نخب اللقاء.
 وظل كل منهما واقفا أمام الآخر وجابر يشدو وهو يغدو ويروح، يطهو السمك
 والدجاج والرائحة تنبعث من المطبخ.
 وواصل فارح :
 - إنني في حلم. كم هو رائع هذا اليوم ! لكنني أحس أنني مرهق قليلا. وعلي
 أن أمارس الرياضة لأنقص من وزني. تصور أنني أزن أكثر من مائة كيلو

والتبغ هو السبب.

قال صالح : كيف ذلك ؟!

- الأمر بسيط. أقلعت عن التدخين منذ شهر أفريل من السنة الماضية. نصحني الطبيب بذلك فرميت العلبة وانتهيت. حنجرتي تعبت. عشرون سنة وأنا أدخن كالمريض.

علق صالح ضاحكا : "المريض لا يدخن"

ردّ فارح بسرعة :

- أعني... العفو العبارة مقتبسة من الفرنسية. كنت فعلا أدخن بشراهة.

فتح الباب وجاء صوت جمال، وتقدم بخطوات ويّدة نحوهم ثم سلم على الجميع واعتذر عن قدمه متأخرا فأجابه صالح :

- لا بأس... لم يمض وقت طويل على قدمي أنا الآخر.

كان واقفا ولحيته تملأ وجهه. قصير القامة ربع أسمر اللون بدأ الشيب يغزوه بكثافة. نزع بدلته القديمة ودلّاهها على الكرسي ثم تنأب حيناً وقال :

- ماذا ستسقيننا يا جابر ؟

أفاق جابر من غفوته وافتر عن أسنانه وهو في منتهى الفرح :

- أهلاً، ماذا تريد ؟ قهوة، شاي، صعتر، إكليل أم لا شيء ؟

- لا هذا ولا ذلك. أعطني كوكا كصديقي صالح.

ابتسم صالح وهمس كأنه خائف :

- لا ترفع صوتك، ما هذه الفضيحة ؟

ثم همس في أذنه :

- اسمع يا جمال، أنا لا أريد أن يعرفني أحد، وأحرص كثيرا على السرية.

- لك الحق في ذلك. كلنا في النهاية أحرار.

طالعه صوت جابر :

- أحرار ! هذا كلام فارغ. نحن دمي متحركة، وهذا الحب المجنون، ألا

تسمع الأغنية، إنها ملحمة...

ضحك فارح وقد لعبت برأسه الخمر ولمعت جبهته العريضة وقال بصوت

عال :

- فعلا. أنت واللحم والدجاج أكثر من ملحمة. لحمٌ... ملحٌ، حلمٌ، حملٌ... في لمح البصر أصبح أكبر شاعر على وجه البسيطة. إن النبيذ يعدل مزاجي، يبعد عني الوسوس والهوسات، ويجعلني أكثر طيبة وإنسانية. امتعض صالح قليلا : (أي قوم ! يحكي عن النبيذ كأنه البلسم الشافي لكل الأدواء... مسكين فارح. قد يحزن اليوم أو غدا).

وجاء صوت جابر :

- خذ. هذه الكوكا... إنني اليوم في احتفال لا يضاهيه أي احتفال آخر.
ردّ فارح :

- صحيح.

ثم نظر في ساعته وأفرغ كأسه في جوفه ومسح شفقيه قائلا :

- أترككم في رعاية الله. يجب أن أذهب. لي موعد ولا بد لي منه.

عاد جابر إلى المطبخ ومضى صوت المغني يدور في الأرجاء فيما صالح وجمال يتحدثان بهدوء. سأل جمال صديقه صالح :

- هل قابلت السندياد هذه الأيام ؟ كان سيهتف لي لكنه لم يفعل.

- رأيتَه قبل يومين، ذلك الفيلسوف النادر، السهل الممتنع. هادئ الطبع رصين وقور، إذا تكلم أفحم وإن سكت بلّغ. فهو عميق اللج، واسع الشطآن... قاطعه جمال :

- كيف. هل أصبح نبيا أو فيلسوفا !؟

- أكيد... بل أعتقد أنه ولد وله هذه الصفات. أقصد أنه إنسان يفكر، يعصر دماغه ويجرب ويأخذ مبادرات.

- مثل ماذا !؟

- إنه يكتب، يسافر، يتاجر، يشتغل، يدخن، يلبس شاشية حمراء بكل فخر.

ضحك جمال ملء شذقيه واهترت لحيته وقارا ثم قال :

- وأنا عبد الملك بن مروان في زمانه. إنني الآن في مثل سنه لما مات.

أضاف صالح :

- أو لم تسمع بما إستقر عليه رأي السندياد أيضا ؟

- ماذا ؟ هات ما عندك.

- قرر أن يقوم برحلة طويلة على خطى ابن بطوطة.
- يا للمصيبة ! لم كل هذا التعب الذي سيعانيه؟! فليقرأ التاريخ وهذا كاف...
مئات الكتب التاريخية تعج بالقصص والوقائع والأساطير والحقائق الملققة أيضا...
- ولكن لديه سر لا يريد البوح به الآن.
- مللنا الأسرار. أنا ليس لي أسرار... هذه إضاعة وقت.
رد عليه :
- هيا ... الوقت يمضي... لا تنس أن لي لقاء مع صاحب البيت الذي سأعيد تجهيزه وتبليطه.
- خرج الصديقان بعد أن ودعا جابر.
- انطفأ الفرح في عينيه، فتح الثلاجة ثم أعاد فتحها مرات، هدأ النار وراح يهشم الخبز قطعاً قطعاً. تنهد ثم قال بصوت عال :
- أين أنتم أيها الزبائن ؟ سحقا لكم ! إذا أتيتم بعد قليل لطلب الأكل فحسب، فلتأكلوا حميماً يمزق أحشاءكم. أنا لا أربح إلا إذا طلبتم نبيذا وجعةً ومقطرات.
- كان ينظر نحو الباب ويبتظر بفارغ الصبر ويدمدم :
- لن أعمل في مطعم يبيع الخمر. ما هذا الفراغ المريع. تباً لهذا الشغل الفظيع ! أي عيش هذا ؟ يا إلهي خلصني من هذه النجاسات. وفكر لحظة :
"لعلي أقول هذا الكلام لأنني فعلاً ثمل" وضحك قليلاً ثم تبيست غصون وجهه الأحمر وأخذ يردد : استغفر الله... استغفر الله.

4

قطب "فتحي الأحمر" حاجبيه الكثيفين ومطّ شفتيه وحدّق في الفضاء ثم أخذ مطرقة صغيرة ضرب بها لولبا مائلا في محرك السيارة. مسح يده القوية المعروقة وجذب نفسا من لفافته المحترقة ثم مال على المحرك فانبعث الدوي قويا ثم لعلع المحرك واشتد خريره وهديره حتى كاد يصم الآذان. وفجأة سعل المحرك وسكت.

ابتسم فتحي ابتسامة عريضة وقال :

– أنا أعرف علتك، وستفنيك من غفوتك رغما عنك.

أشفق منير على سيارته وكاد يقول له :

– لا. لا داعي لهذا، فالمحرك لا يشكو من أي عطب.

ولكنه أمسك عن الكلام مرددا في سره : "بدون السيارة، لا أستطيع عمل شيء، هي رجلاي ويدي وراحتي وبيتي، أو لم أبت داخلها عدة مرات؟ بل قضيت بها أسبوعا كاملا. أكل وأغسل وجهي صباحا وأرتب أموري وأخزن ملابسي وأحلق ذقني" ... وتداعت صور كئيبة في مخيلته جعلته يشرف على الكأبة لولا أن رفع رأسه وسأل فتحي :

– افعل ما تراه صالحا يا أخي. أنت تعرفها وهي تعرفك.

غاص فتحي في أرجاء المحرك يفحص ويفتح ويشدّ وأحيانا يرمي بشيء في يده. وبعد لأي استوى واقفا يغسل يديه من أثر السواد والشحم والفحم وهمس في أذن منير الذي كان تائها زائغ النظرات :

– هيا نشرب كأسا. السيدة في أحسن حال. إنها عنيدة ولكني عرفت كيف

أداورها وأخالها لتبوح لي بسرها .
 وأردف فيما كان منير حائراً يلعن السيدة التي جعلته يخرج من بيته ويذام
 في السيارة كأنه مشرد :

- إنها كأخواتها، تتمتع في البداية فإن وجدت رجالاً أشداء مصممين،
 أطاعت، وإن رأتهم جنباء ومشفقين على أنفسهم، كشرت عن أنيابها ولفظتهم،
 وقد تكسر عظامهم وتدوسهم.

ازدادت حيرة منير وفكر : "هل هذا ميكانيكي أو عالم نفساني، كأنه يعرف
 بالتفصيل أجزاء من حياتي"

سارا جنباً إلى جنب فربت فتحي على كتف منير :

- والله لو لم أكن اعتبرك صديقاً لما اشتغلت اليوم. كما تعلم، يوم الأحد هو
 اليوم الوحيد الذي أتركه لراحتي. ثم إنني بصدد إحضار مراسم زواجي...
 أه. لعن الله تلك المرأة التي جعلتني أفارق ابنتي الصغيرة. كم أشتاق إليها،
 إلى تقبيلها وحملها بين أحضاني.

كاد منير يسقط مغشياً عليه. فكر هو الآخر في ابنته الصغيرة وحياته التي
 استحالت جحيماً لا يطاق منذ أكثر من ستة أشهر، وقال بصوت فيه حشجة
 يائسة :

- لا عليك... كل شيء يهون طالما أن الصحة بخير.
 - أي صحة ؟ أنت ترى أنني معافى ولكن دماغي يعاني غليانا ويفور في اليوم
 مرات، وكلما ذكرت ابنتي انهملت دموعي وأمسكت عن الكلام ونفرت حتى من
 الشغل. تصور، انقطعت عن احتساء الخمر طويلاً، غير أنني منذ سنة عدت بقوة
 فأصبحت احتسي العشرات من أقداح الجعة عني أنسى همومي. فما راعني
 إلا وهي تزداد حدة وبتوء. إنها مسامير طويلة تقض مضجعي وتطير عني النوم.
 قاطعه منير :

- كلنا نعاني يا أخي فتحي. لقد كتب علينا الشقاء.
 وفكر : "على الأقل أنا لست الوحيد الذي يعاني. وفي هذا تخفيف للبلاء عن
 النفس".
 أضاف فتحي :

- هي ذي الحياة. قد أسافر أنا أيضا بعيدا حيث لا أرى أحدا ولا يراني أحد. كما سيفعل السندباد.
- ماذا ؟ أي سندباد ؟ أهى رحلة ذلك الرجل الذي في كتاب ألف ليلة وليلة ؟ إنها خرافات مثل خرافة أمي سيسي.
- لا... لا ليس هذا. إنه صديق لي. أحيانا أصلح عطب سيارته وأحيانا نلتقي في الحي فهو يسكن قريبا من "لافيلات" وراء مركز البريد بالقرب من الكنيسة.
- وهل هو الآخر يعاني مما نعاني ؟
- لا... لا أدري. في الحقيقة، أنا لا أسأل كثيرا وأنتظر دائما الوقت المناسب الذي يحكي لي فيه صديق عن حياته أو نفسه.
- هذه من الصفات النادرة أيها "الأحمر".
- قد يكون. المهم أننا حين نلتقي بصديق، إما أن نتحدث ونسر إليه بأشياء وهو يتلقى ويسمع، وإما أن يشكو هو ويحكي ونحن نقوم بدور السامع. وقليل من الناس من يتحاورون ويستمع كل للآخر حسب دوره وباحترام لمنطق التناوب.
- صحيح. هذا ما يتم عادة إذا ما التقى صديقان، إما إذا كانوا أكثر من ثلاثة فعلى الدنيا السلام. كل يغني على ليلاه ولا من حبيب يستمع له بل الكل ينساه.
- ابتسم فتحي وأضاف :
- وقد روى لي سرا غريبا جعلني وجها لوجه أمام نقاط استفهام وتعجب طول الواحدة منها يفوق طولي. ففي اليوم الأول ذهلت، وفي اليوم الثاني حاولت تحليل الأمور بهدوء وتريث، وفي اليوم الثالث اشتد ذهولي، في الرابع كدت أصاب بلوثة جنون وانتابني خوف وحينما أويت إلى فراشي نز من جسدي عرق بارد ثم فار رأسي كالمرجل. وفي اليوم الموالي لم أكد أغمض عيني حتى رأيت عفريتتا من الجن يهمس في أذني بصوت كاد قلبي يقفز من صدري لسماعه : "أنت الآن حية تسعى، وستدخل جوف رجل ستلاقيه، إذا أعطيناك الإشارة فادخل ولا تهدأ، اذهب بعيدا حتى تستقر في جوفه، وعندئذ

نقول لك ما أنت فاعل" ...
فغر منير فاه، وترنح إلى الوراء قليلا مردداً :
- أعوذ بالله ! ما هذا يا أحمر؟ لقد احمرت الدنيا أمامي !
ومد يده ليستند إلى قاعدة رخامية خشبية السقوط على الأرض.

5

انتصب غريب أمام الشاشة، ابتسم ابتسامة طويلة وسرح نظره نحوها يداعبه شعور ببعض الرضى همس لنفسه : "هذا النسر سيحمل الكرة الأرضية ويبعدها عن الشمس قليلا فهي تكاد تحترق". سمع طرقا خفيفا على الباب فنهض وقال :

- من بالباب ؟ من ؟ لحظة من فضلك !

لم يأت الرد، كان الهدوء يخيم على المكان ولم يكن أحد في الساحة الصغيرة المفضية إلى المكتب.

عاد إلى ما كان فيه ثم استوى واقفا وتقدم خطوتين وطفق يهیی قهوة. لقد أصبحت أيامه كلياياه. الشاشات الثلاث تشع ومنها ما يتشظى انتظارا. وجد في الوحدة سكينه حتى أنه أصبح لا يرغب في الخروج إطلاقا... ومرة عن له خاطر : "لماذا أعود إلى غرفتي بالطابق التاسع. أصعد إليها ليلا وأخرج منها صباحا لاستقر بالمكتب. هذا تعب لا لزوم له. سأظل بالمكتب طوال الوقت وأكفي نفسي مؤونة ركوب المترو ورؤية الناس. هنا على الأقل أحس بأني أعمل شيئا ما، أشتغل، أتحرك".

ومنذ ذلك اليوم، هجر غرفته وهجر العالم والناس، فجعل من المكتب الأول الذي يدخله من الباب الخلفي غرفة نوم وعمل، وبين الأوراق وشاشات الحاسوب نصب فراشه الخفيف. وفي القاعة الكبيرة وضع في خزانة حديدية في الدرج الأخير ملابسه وبعض القوارير والحقق والعلب، وفي المقابل جعل الفرن الصغير وجها لوجه مع آلة الفاكس. وعلى الطاولة الكبيرة صحن

وأكواب وأشياء أخرى، وأسفل آلة قص الأوراق جوارب وسراويل. وبجانب قوارير الحبر والشحم ماء وزيت وخل. أما الخضر والغلال فقد تربعت فوق آلة النسخ والتصوير. وفي الطابق السفلي، أمتعة أخرى وملابس معلقة للتجفيف وبعض الكتب وصور حائطية ولوحات زيتية وآلات تصوير وتحميض. في هذا العالم وقف غريب يلوك غريبته وحياته يتطلع لغده ويدور في أرجاء أمسه. عاتبته مرة لم لا يرد على الهاتف فقال إنه لا يجيب. ومرة أخرى قلت له إنني ضربت على الباب الأمامي فقال :

– إنني لا أفتح لأحد ... كما تعلم.

فقلت : وما العمل إذن. كيف أستطيع اللقاء معك ؟
رد بسرعة وانتباه :

– مرحبا بك. أنت... في كل لحظة. يكفي أن تأتي من الباب الخلفي وتضرب ضربا خفيفا، وسأقول لك من الطارق وتقول لي اسمك، وإذاك أفتح لك.

– شكرا. أنا أتق في حسن استقبالك وحرصك على ملاقاتي.

– فعلا. عليك أن تمر لتزيل ما علق بي من جفاء ونتحدث بعض الوقت، فهذا كما تعلم يسرني ويدخل على قلبي بهجة افتقدها.

– أعلم ذلك.

– نعم. أعرف أن لك ارتباطات عديدة والتزامات عائلية وأطفالا وشغلا، وهذا يأخذ كثيرا من الوقت. ولهذا أعذرك دائما.

– هي ذي الحياة. قد تكون الوحدة خير عامل ل...
قاطعني :

– أي عامل ؟ الوحدة صارمة وقاتلة. الوحدة تقتل الطموح وكل يوم تنقص من إرادة الإنسان جزءا حتى تأتي عليها، وبعدها تنهش العظام وتفتت الخلايا. أنا لا أتمناها حتى للأعداء.

– ولكنك يا غريب، يا صديقي، اخترت أن تجانب الناس، وبمحض إرادتك تحاشيتهم وهجرتهم.

– بالله عليك ماذا قدم لي هؤلاء الناس ؟ اشتغلت مع كثير منهم فأكلوا عرق جبيني وضحكوا علي. أسررت إليهم بسري فأفشوه لكل من هب ودب،

استأمنتهم على مالي فما ردوا الأمانة، طلبت من بعضهم العون فما ساعدني منهم إلا شخص واحد، وحينما تخاصمت معه طلب مني أن أدفع له ثمن كل الوجبات التي دعاني إليها عندما كنا صديقين.

- لا عليك. هذا ليس مجاله الآن. عد إلى نسرك الملكي حتى تنهي اللوحة فلعلها تكون منعرجا في حياتك. ألم تقل إنك تفكر في عرض لوحاتك القديمة مع لوحتيك الجديديتين "النسر الملكي" و"الحياة الأخرى".

- حسنا، هذا ما سأقوم به. أشكرك كثيرا على اعتنائك ونصحك الثمين.

أحيانا يخيل إلي أنني انتهيت، أما في هذه اللحظات فأنا أولد من جديد.

- إذن اتفقنا. تنفض الغبار عن لوحاتك وتواجه المرحلة القادمة بكل حزم وعزم. أه... لكن أين اللوحات ؟

- بعضها عند صاحب شركة الأسفار الذي شغلني سنة فما ربحت منه سوى

ما يقابل شهرين من العمل. والباقي في بيت عمر سلحوف الذي ساعدني

كثيرا عندما وجدت نفسي دون مأوى. أتذكر السنة التي تهاطلت فيها الأنواء

على باريس، تداعى سقف غرفتي وكسر الثلج زجاج النافذة حتى خفت على

نفسي. وكان هو الوحيد الذي عرض علي إيوائي، وكان يسألني عن حالي

كلما رأي، وأحيانا ينقدني بعض المال. لكن لسوء الحظ...

- ماذا ؟ عن أي حظ تتكلم ؟

- حظه وحظي. لقد كان رجلا تقيا يقضي وقته في المسجد لأداء الصلاة.

- هذا ليس من سوء الحظ بل هو الحظ عينه.

- ليس هذا ما أريد قوله.

- إذن ماذا ؟

- في الحقيقة هذا سر لا أريد البوح به.

- أنت حر.

- أرجو أن تفهمني.

- أفهمك... أحاول.

- يعني لا تشعر بالحر.

- وأي حرج في ذلك ؟

- إذن نحن متفقان وسأحاول إحضار اللوحات ومسح الغبار عنها.
- وتكمل لوحة النسر كما وعدتني.

- لا تخف، أنا مصمم هذه المرة وكلي عزم على إقامة العرض، وكما قلت لك مرات، نحتاج إلى المثال، إلى القدوة، أن ننهض بأنفسنا أولاً، فالأجيال الشابة تنتظر مثلاً أعلى. قل لي ما الذي ينتظر هذه الأعداد الوافرة من الشبان والشابات؟ ما هو المشروع المتكامل الذي وضع لهم وحسب أي خطة؟ تنقل في البلاد العربية وأسأل أهل الذكر وسترى أنهم خالو الوفاض. إنهم جعلونا سوقاً استهلاكية ولا يهتمهم من أمرنا شيء. إنها العدوى وأفتك من أشد الأوبئة فتكا. قاطعته وأنا أشد على يديه :

- إلى اللقاء.

- إلى اللقاء القريب

وعاد إلى الشاشة يندن بمقطع أغنية : "يا حبيبي كل شيء بقضاء. ما بأيدينا خلقنا تعساء" واستطرد فعاودته مقاطع أخرى ظل يغنيها حتى فاضت الدموع من عينيه وتراعت له القرية قريبة المنال بجدرانها القديمة وأجرها المرصوف ونخلها الباسق ووادبها وجبالها وزيتونها وبقي يتأمل الحي الذي فيه ولد وشب وترعرع حتى وقف أمام باب بيتهم الكبير. لم يكن على قدر من الشجاعة ليدق ويدخل، هو يشعر بالذنب تجاه أمه التي لم يرها منذ سنوات طويلة ولا يعرف كيف يعتذر لها ولا حتى كيف يسلم عليها ويقبلها ويضمها. أمه التي تنتظر بصبر وصمت، وقلبها الخافق يرفرف في الفضاء باحثاً عن هذا الولد الوديع، الهادئ الذي طالما أحبته وحننت عليه وضمته.

ألهذا الحد يصبح اللقاء صعباً، والمسافة التي بينهما بضعة أمتار؟! لماذا لا يدق ولا يدخل! يستطيع أن ينادي فتخرج له ويتم اللقاء، وتنعم القلوب بطيبه. ألهذا الحد أصبح الأمر مستحيلاً وصعباً على النفس.

فجأة غاب النسر عن الشاشة وتطايرت شظايا من حوله فانتبه غريب من غفوته وود لو حمله النسر إلى هناك ولكنه جمع قواه وصبر ممنياً نفسه بلقاء قريب. أما الآن فعليه تجهيز اللوحات واختيارها والاستعداد لليوم العسير والاتصال بكل من صاحب الوكالة وعمر سلحوف لاستعادة اللوحات.

6

قام السندباد متثاقلا هذا الصباح. لم يأنس لضوء الشمس كأنه لم يره من قبل. مسح عينيه ولوى شاربه ثم صفق كعادته إذا استعصى عليه أمر من أمور الدنيا. جلس على الأرض فوق جلد خروف أتى به من مراکش منذ أكثر من عشرين عاما ثم جذب كتابا من بين مئات الكتب المصففة والأخرى المرصوصة وطفق يقلب الصفحات بنهم، ولم يفتق إلا والشمس في كبد السماء. منتصف النهار. عليه الآن جمع متاعه والخروج لشراء ما بقي من الزاد فالرحلة على الأبواب. باريس الدائرة الثامنة عشرة هي نقطة الانطلاق وبالتحديد من حي "باربيس" الشهير. لقد خطط لهذه الرحلة على خطى ابن بطوطة منذ سنوات. وستكون أول المحطات إسبانيا ثم المغرب الأقصى وموريطانيا والسينغال فبلاد إفريقيا الغربية ثم إفريقيا الوسطى والجنوبية ثم القرن الإفريقي وعبر الصومال أو بلاد الحبشة يدخل آسيا ليكمل جولاته. (ابن بطوطة لم يقم بهذه الرحلة على هذه الشاكلة)، قال المؤرخ.
رد السندباد :

- اسكت. من أخبرك أنني سأفعل مثل ابن بطوطة ؟
- لكنك وعدت بهذا !
- صحيح ولكنني سأجول بلادا أكبر وأجوس مجاهل أقفر وأعاشر أقواما لم يسمع بهم ابن بطوطة ولا غيره من المؤرخين والرحالة.
- فغر المؤرخ فاه :
- أنت فعلا سندباد معاصر.. بل أنت ملك الرحالة !

عاد إلى البيت يحمل أثقالا ينوء بها وفكر : "ألم يكن من الأجدر البحث عن رفيق في هذه الرحلة" ؟ ثم قال : "لا، لا. عندئذ تصبح رحلة سياحية وسيفسد علي هذا المرافق أحلى اللحظات... مستحيل".

ركب السيارة بعد أن ملأها بالزاد والمتاع وفتح كيسه يتأمل وثائقه وبطاقة هويته ثم أعد رحاله وقال : على بركة الله.

هو الآن في طريقه إلى مدينة بواتيه. سيزورها وسيزور نربونة ومدنا فرنسية أخرى ترك فيها المسلمون أثارا لن تمحى. ليست معمارا فحسب بل عادات وتقاليد في الطبخ والأكل والتصرفات اليومية وحتى أسماء الناس وحثقهم بعض الحرف والصنائع. كان يدون كل كبيرة وصغيرة ولا يفوته أمر مهما كان ضئيلا. وهو حريص على الجزئيات ودقائق الأشياء فهو عادة ما يقول : "من الأمور الدقيقة نركب عالمنا المركب، ومن لم يفهم الجزئيات لا يابيه بالكليات". فالسندباد سافر ودرس وعاش الناس كثيرا. فهو في بلاد الفرنجة معاصر يقرأ الروايات والدراسات ويحرص على مشاهدة الشاشات العالمية حتى التي يتطلب الحصول عليها تجهيزات خاصة واشتركا، لذلك فهو يخبرك بكل ما طرأ في العالم في أية لحظة. وهو في بلاد العرب والمسلمين واحد منهم حتى لتظن أنه لم يغادر بلده أصلا، فلباسه مثلهم لا يختلف في شئ عن الباقيين. قليلون هم الذين يجولون في شوارع باريس بالدائرة الخامسة والسادسة في طربوش أحمر وبدلة عربية بيضاء وشاش أصفر يتدلى، والسندباد يجول منتعلا خفا مغربيا من الجلد وبيده عرف الياسمين يشمه وأحيانا يثبته على أذنه بمهارة. ومع ذلك في اليوم ذاته أو اليوم الموالي يضع السندباد طاقية جلدية وسروال دجين قديما وحذاء صلبا أو ربما يلبس بدلة الكاكي الشهيرة، لكن الشيء الوحيد الذي لم أره مرة يلبسه هو الكسوة الغربية وربطة العنق.

توقفت السيارة وهبط يتفرس في العجلات، كل شيء على ما يرام. جلس تحت شجرة وارفة الظلال وبدأ يتناول غداءه ثم أخرج أوراق التبغ وبدأ يلفها، جذب نفسا طويلا وتساعد الدخان أمام عينيه وإذك تراءى له غريب منفوش

الشعر زائغ النظرات طويلا على غير عادته، سميئا. فكر : "لقد أوصيته ألا يفشي السر لأحد، والله لو فعلها لأجعلنه عبرة لمن يعتبر، وهو يعرف أنني السندباد، ضحوك باسم، ولكني حين أكثر عن أنيابي أصبح أسدا مزجرا وأجرف في طريقي كل شيء".

توقفت سيارة سوداء وراء سيارته، زجاجها داكن، لم يتبين من فيها ولم يهبط منها أحد. عاد إلى ما كان فيه من أمر غريب وفكر : "لوحاته معبرة وصارخة وكلامه جيد طالما لم يطنب في الحديث وإلا أصبح مصيبة وكارثة على من يسمعه... سأهذبه وأعلمه حتى يختار كلماته، سأصقله حتى يأخذ اللب ويدع القشور، سأجعل منه شعلة نكاء وأكون سعيدا لو يضاهيني في الذكاء والدهاء والكياسة". بينما هو كذلك إذ سمع صرير الباب وهو يفتح، رفع بصره قليلا فجاه الصوت رقيقا ناعما :

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام ورحمة الله.

أصابه ما يشبه الدهول :

- هل أستطيع الاستراحة هنا قليلا ؟

رد وعيناه تأهتان :

- نعم. طبعاً. هذا المكان للجميع. وفكر : "من أين نزلت هذه الغانية الشابة،

وأين ستذهب" ؟!

جلست قبالتة. شقراء طويلة الشعر فارعة القوام ثم قالت :

- يا سيدي، إلي أين أنت ذاهب في هذا الحر الذي لا يطاق ؟

- اسمعي يا فتاتي. كنت سأسألك نفس السؤال. لماذا أنت سبابة في كل شيء ؟

- لا. العفو.

- بل هو كذلك. أنت التي سلمت عليّ، وأنت التي سألتني وأنت أيضا التي ستجيبين على سؤالتي.

- أنا سعيدة بوجودك هنا، كنت أظن أنني سأقضي القليلة وحيدة في هذا المكان المقفر.

- أما مقفر، فلا. ألا تشاهدين السيارات بالمئات ؟
- صحيح، ولكن طالما أن أحدا لا يتوقف فقد أظل وحيدة أو أشعر ببعض الملل.

- على أية حال. أهلا وسهلا.

- شكرا.

- إذن سأجيبك عن السؤال، لكن بشرط.

- بشرط أو بشروط ؟

- كما تشائين. فلنقل بشروط.

- إذن نبدأ بالشروط.

نظر السنبداد نحوها ورأى زرقة عينيها وصفاء بشرتها ونقاء جبينها فظن أنه في حلم. التفت يمينا وشمالا كمن يخاف على سر يفشييه ثم تنحى قليلا وأسند ظهره إلى الشجرة وقال :

- أولا أنا اسمي "آشور" وأدعى السنبداد أو هكذا لقبني أحد أصدقائي. أما الشروط فهي ألا تقاطعيني حينما أتكلم وإلا كان لي الحق في إلقاء سؤالين كل مرة. ثانيا إذا لم تكوني مسافرة إلى الجنوب فلا داعي لإلقاء أسئلة خاصة. ثالثا إذا كنت تتعقبن خطاي أو طريقي منذ باريس فإن جهدك سيذهب سدى، لأنني أنا السنبداد لا تفوتني صغيرة ولا كبيرة وأساليب الاستعلامات والمخابرات لا تجدي معي نفعا. ورابعا وأخيرا إذا لم تكن لك طاقة على سماع أشياء غريبة عجيبة مزعجة وأحيانا جهنمية وشيطانية فلا داعي للبقاء معي.

تقدمت منه قليلا فازدادت زرقة عينيها وافتتر ثغرها عن أسنان ناصعة بيضاء. سكتت وهي تمسح شفيتها بظاهر يدها الرخصة.

كان السنبداد يرهف السمع ويشعر بالإشفاق على نفسه كأنه يحمل قلبه بين راحتيه. كان حذرا مأخوذا بهذا الجمال الغض، وهو المقدم على الأحوال والمفاجآت. أو ليست هذه المفاجأة الأولى التي لم يحسب لها أي حساب !؟

7

دخل سفيان البيت فاستقبله عطر يحبه، أنعش روحه وأعاد إليه الهدوء.
وضع محفظته السوداء ثم أدار بصره في قاعة الجلوس ونادى بصوته
الجهوري :

- أين أنت.. أنت هنا يا دانيال!؟

جاءت تنط وارتمت في حضنه كقطعة أليفة وهي تقول :

- أحسنت عملا بقدومك مبكرا..

- حسنا إذا كان هذا يسعدك. أتدرين لماذا أتيت في هذه الساعة؟

- لا. ماذا وقع؟

- فكرت في رحلة، نقوم بها أنا وأنت. نساfer إلى تونس فالفصل أحسن
الفصول للقيام بجولة عبر البلاد من شمالها إلى جنوبها.

- أه. ذاكرتك قوية. أنا على استعداد طالما أنت معي. متى أطلب اجازة في
الأيام التي تستغرقها الرحلة؟

- الأسبوع القادم مثلا.

قبلته على جبينه ثم أضافت :

- إنها فكرة رائعة. أعرف أنك دائما تفرحني بهذه المبادرات.

- صحيح. أنا زرت بلدك ايرلندا مرات ومرات وحان الوقت لكي تزوري بلدي.

نهض إلى المطبخ واضعا بذلة الطبخ وتبعته بدلال وطفقا يجهزان
عشاءهما وصوت عبد الوهاب يأتيهما رقيقا ناعما، والبخور الذي أشعلته
دانيال يعم البيت برائحة تريح القلب وتزيل عنه أثر التعب والإجهاد.

- أثناء العشاء حكى لها حكاية السندباد فانفجرت ضاحكة وقالت :
- هذا ليس بغريب. إنه رجل فريد وأصيل. أرجو أن لا يقع له مكروه.
ردّ سفيان :
- هو رجل راشد ويعرف ماذا يعمل. وهو الوحيد المسؤول عن نفسه. إن عاش عاش وإن مات مات.
- لكن لماذا يريد إنجاز مغامرة كهذه ؟
- هذا شأنه هو. وأعتقد أنه يريد أن يتفرد ويقوم بشيء لم يقم به أحد غيره.
قد يكون مريضا. أعني يعاني حالة نفسية ما.
- ربما. ولكنه على الأقل ينجز ما يريد ولا يثنيه عن عزمه شيء.
- حتى الأغنياء ينطبق عليهم هذا الأمر فهم يعيشون كما طاب لهم ولا يثنيهم شيء عما يريدون فعله.
- هيا، حبيبي. الطبق جاهز. ألا تشمّ رائحة البطاطا والبقدونس والقرنفل ؟!
حك أنفه قليلا محاذرا أن يلامس أعلاه وقال :
- أنا جائع فعلا، وسأتي على كل شيء حتى أعوض ما خسرت من حريرات هذا اليوم. فقد استمعت إلى محاضرة في الصالون وكان النقاش شبه حاد خاصة بعدما أظنبت جمال في الحديث عن الدم والقتل والذبح وتكسير العظام وقطع الرؤوس.
- ما هذا ؟ دعنا نتناول عشاءنا بعيدا عن هذه الأجواء القاتمة.
- لا عليك. وقال إن عقبة بن نافع كان دمويا، وقتل الآلاف دون شفقة أو رحمة لنشر الإسلام في ربوع إفريقية.
- قد يكون ذلك صحيحا.
- لا صحيح ولا هم يحزنون. أين المراجع ؟ لم يذكر مراجعه بل هجم علينا بسيوفه وخنجره وسهامه وفتك بنا فتكا ذريعا. جمال أحيانا يغضبني حتى لأكاد أضربه أو أقتله.
- وانفجر ضاحكا وأخذ دانيال بين ذراعيه مقبلا وهو يضيف :
- الآن أكل وشراب، وغدا قتل وعذاب !
- إن سنكون أجمل حبيبين يجوبان الصحراء والتلال والجبال.

- سأكتري سيارة حتى نكون طليقين ونبيت تحت ضوء القمر أنى طاب لنا.
- وسأحلم كما لم أحلم أبدا.
- وسنبحر في الجزيرة.
- وسنبحر فيها.
- وأخذت ترشف قليلا من العصير، وأضافت :
- وستكون الشمس في الموعد.
- ومغيب الشمس ولونها الشفقي الرائع.
- وتحضنني بعيدا عن أعين الناس.
- وأمسح العرق عن جبينك المشرق وأقبلك في وهج الظهيرة.
- وسأختزن كثيرا من الذكريات والأحداث وأكتب.
- إذا كان الوقت سانحا، سنزور «مطماطة» ومغاراتها ودورها السفلية المحفورة في الأديم والصخور.
- ونزور «نقطة» فقد قرأت عنها وعن واحاتها الفيحاء وبنيانها العتيق.
- وفي «توزر» نقف على قبر الشابي ذلك الشاعر العظيم ! ونزور رأس العين
- آه هو من بلاد الجريد. اذكر أني قرأت بعض شعره المترجم إلى الإنجليزية.
- طبعاً. تلك البلاد معروفة بأدبائها ومساجدها وحكمة أهلها وعراقتهم. لكن يبدو أن السياحة والسيّاح اكتسحوها فبدأت معالمها تطمس قليلا قليلا وهذا هو الجانب السلبي للسياحة.
- والشغل. إنه مهم. فالناس يطلبون عملا لأن عليهم إعالة عائلاتهم وأطفالهم. والناحية الاقتصادية غالبا ما تكون أكثر أهمية من غيرها.
- عم الصمت. وسرحت دانيال تراجع ذكريات قديمة. وتراعت لها الأحداث. وفجأة تذكرت صديقتها فريدة منصور والحكاية التي حكته لها عند آخر لقاء بينهما أول أمس. غاصت في تفاصيل تلك الحكاية وحاولت فهم بعض فصولها فأصابها ما يشبه الدوار. ثم ذكرت الشيخ عمر وودت لو تراه. هذا الرجل الغريب صاحب اللحية السوداء الطويلة الذي يتعامل مع الإنس والجان والتجار وأهل المخدرات ورجال المخابرات. كيف جمع كل هذه

الاهتمامات وكيف وقعت فريدة فريسة بين يديه؟! قد تكون على حق فهي جميلة جذابة تعمل كثيرا ولا تكاد تفارق محل التجميل الذي فتحته في ضاحية باريس الشمالية. وانكفأت على نفسها منذ خمس سنوات بعد خيبتها الكبيرة وضياع آمالها. فقد تركها خطيبها جمال بعد أن أمضيا سنوات عديدة معا واتفقا على الزواج، وجهزت بيتها وأحضرت كل أسباب الراحة ورتبت كل أمورها وطمأنت أهلها على مستقبلها، خاصة أمها فتحة التي كانت تنتظر بفارغ صبر زواج ابنتها، أصغر بناتها وأقربهن إلى قلبها. لم تكن تتصور أن يخذعها ويفارقها بين يوم وليلة. بل لم تكن تتصور إطلاقا أن يفارقها ثم يتزوج بعد ذلك من فتاة بنت عشرين لا تزال طالبة بالجامعة. فقد فقدت هدوءها وعاشت فترة اكتئاب كادت تؤدي بحياتها. أحيانا وهي في محلها أو حتى في بيتها، يصيبها عارض عصبي فيغمى عليها وتضطرب أعضاؤها ومفاصلها وتصطك أسنانها ويغيب بؤبؤ عينيها كأنها ستفارق الحياة.

وفي كل مرة يأتي رجال الإسعاف الإستعجالي أو الطبيب الجوال وتعود إلى وعيها كأن شيئا لم يكن. هذا ما بقي لها من الوعود والآمال. هي ذات الثلاثين عاما. وهذه بعض الغضون بدأت تغزو وجهها الغض. جربت كل الأدوية وذهبت إلى الأطباء المتخصصين، علماء النفس، أطباء النفس، أطباء الأعصاب ولكن بقي كل شيء على حاله. يئست من العلاج وأصبح مرضها مرضين، فهي تخاف على مستقبلها وترى الأيام تلوكها وتخشى على صحتها وعقلها وأشرفت على ما يشبه اليأس. وذات يوم قائظ دخلت مقهى فجاءها النادل طريا فطلبت عصيرا وحدقت في الزبائن. امرأة تقف وحدها قبالة النادل. شابان يتحدثان بصوت عال وأحيانا يهمسان. امرأتان جالستان تضحكان وشاب أشقر طويل القامة ذو شارب كث وعينين واسعتين. خفق قلبها خفقة، وذكرت خطيبها الغادر وتراقصت خيالات أمام عينيها ثم غزاها ضباب كثيف وأحست بجسمها يتهاوى كأن قوة خفية تجذبها للأسفل وسقطت مغشيا عليها. هرع الجميع وأصابهم ذهول.

قال النادل :

- كاترين أين رقم الطبيب ؟ الطبيب في الحال.

تقدم فتحي "الأحمر" وقال مخاطبا النادل :

- هات لي كأس ماء.

أخذ يصب الماء على وجهها وهو يخاطبها :

- أنسة... أنسة... هل تسمعين ؟

ثم أضاف :

- هل لديكم ماء الورد... ماء الزهر ؟

لم يرد عليه أحد. كان الجميع في ذهول وحيرة.

قال الأحمر :

- بسم الله... بسم الله الرحمن الرحيم.

فتحت عينيها وفركت جبينها ثم ابتسمت بخجل وقالت بصوت واهن خافت :

- شكرا... العفو إن كنت أزعجتكم... لا داعي للطبيب. لا داعي.

أجلسها النادل وساعده فتحي الأحمر، ثم قال :

- هل تشربين ماء باردا ؟

- نعم أنا أشعر بعطش شديد... هات لي بعض ماء لأبل ريقتي...

8

- "هل أنا جابر ميمون أو ابن عمر؟ لماذا أطلق عليّ هذه الكنية؟ فليسمني باسمي ولا بأس في هذا. هل أبقى مترددا حائراً مثل فارح". ضحك فارح كأنه فهم ما يدور في خلد صديقه ثم قال :
- تلك قصة قديمة. ولكن قل لي من أنبأك بهذه التفاصيل؟ وأردف بعد صمت :
- خاصة حكاية الدراجة النارية الرمادية، تلك التي عاشت معي غربتي وأنا في القرية. أه... كم قطعت من مسافات وكم سلكت من حارات ودروب وحببية القلب تلاحقني بعينها وقلبها وروحها. سامح الله أباه ذلك الوحش البليد. وعاد يسأل جابر ميمون :
- أتدري. أحياناً يخطر لي خاطر فأكاد أجنّ. أنا لا أطيق الظلم.
- من يتحمل الظلم؟! لا. ليس هذا ما أريد قوله.
- دعني منك. لا تجرني إلى المتاهات ونحن لا نزال في أول السهرة.
- ويقول لكل من يراه في السوق : "ابن دغريير سكير. لن أزوجه ابنتي ولو طار". وابنته تقول لأهل حارتنا : "لن أتزوج غيره".
- قاطعه جابر :
- ها أنت تعود إلى القصة القديمة. ألم تعاهدني مرارا ألا تحكي لي عنها. مرت الآن عشرات السنين ولا داعي لنبش الآلام. فاضت دمة في عيني فارح :

- هات... افتح لي واحدة. أنا راحل.
- أين سترحل؟ أسمع هذه المرة الأخيرة.
- أخيرة ماذا؟! هيا اشرب.
- سكب كأسه في جوفه دون توقف فلمعت جبهته العريضة السمراء :
- حكايتي ليست كالحكايات. عقدني أبوها. كأن له ثأراً معي. لست أدري ما فعلت حتى يمانع بشراسة ويشهر بي في كل البلاد. سامحه الله.
- بعدما أنهى آخر كأس، أخذ هاتفه الجوال ونقر عليه مرات :
- أهلاً... ابنتي. كيف حالك؟ ماذا تفعلين؟
-
- نعم. أين أمك؟
-
- ماذا أكلت اليوم؟
-
- الحلوى؟ نعم سأرسل إليك كل ما تريدين
- ثم التفت إلى جابر قائلاً :
- إنها ذكية هذه البنت!
- البنت بنت أبيها.
- مسح على بطنه الضخم ثم قال :
- إلى اللقاء... إن رأيت ذلك الشاب اللطيف فسلم عليه.
- من؟ أي شاب؟ أه! صالح.
- نعم. أصلحك الله.
- ودعه وخرج فقال جابر بصوت مسموع :
- (هو ليس ذاهباً إلى البيت بل سيتوقف كعادته في مقهى "الملعقة الفضية" وبعدها يحط رحاله بحانة "الشربون" ثم ينهي جولته في "المحطة". إنه عفريت، لا يهدأ ولا يكل ولا يقر له قرار حتى تثقل رأسه الخمر وتلعب به. مسكين فارح. لم يقلت من عشقه أبداً وهو يريد أن ينسى).
- وبينما هو كذلك إذ أطل جمال وسلم بصوت عال مرعد يهد الجبال. التفت

- ذات اليمين ثم نزع بدلته الرمادية القديمة القصيرة وعلقها على الكرسي
 وطلب كأس شاي وما لبث أن أضاف بصوته القوي :
- أسمع يا جابر !؟
 ارتعد جابر ومط شفتيه :
- سمعت وسمعت ولا أزال أسمع، ما دام الإنسان حيا يرزق فهو يسمع
 ويسمع.
- قال :
- السندباد شد الرحال. وقال لي صديق لنا إنه ترك وصية.
- مات !؟ قل لي.
- لا، لا. هو من النوع الذي لا يموت قبل أن يطوف العالم.
- يطوف العالم ! ما له والعالم ؟ دعنا من الكلام الفارغ. هل لدينا وقت لنطوف
 العالم. دعنا نطف داخل أنفسنا أولا. أنا أعترف بعجزتي واعتقد أنني لا
 أعرف عن داخلي سوى النزر اليسير.
- صحيح. لكن السندباد لا يريد ذلك، إنه يريد فهم الآخرين... الحضارات،
 الأجناس، الأنتروبولوجيا، الإناسة...
- اسمع يا جمال، لا تزعجني بالتاريخ والجغرافيا، صحيح أنني عظيم القامة
 والحمد لله، ولكن عقلي صغير. أنا قزم لا أفهم هذه الأشياء. حدثني عن
 الطبخ، عن الزبائن، عن الدائرة الحادية عشرة أو إن شئت اسألني عن فارح،
 وصالح، وفتحي "الأحمر" و«جان بيار هيشر».
- قاطعته :
- الأولان أعرفهما... وصالح صديقي كما تعلم رغم أنه أتعبني هذا الأسبوع.
 تصور حملت معه الإسمنت والدهن ولوازم البناء وأكياسا ثقيلة من بقايا مواد
 البناء ثم يقول لي : (اصبر، اصبر)... أي صبر ؟ ! تركني ساعتين أنتظره
 في باب البناية ثم هبط كأنه عريس وقال لي : (اصبر. اصبر). ضقت ذرعا
 بالصبر وأهل الصبر. أما الأحمر هذا فلا أعرفه.
- خير لك. لا فائدة في معرفة أمثاله.
- ثم قال بصوت هامس :

- هو على الأقل يتكلم بهدوء ولا يزعجني بعلم الأنتروبولوجيا .
- ثم أطلق ضحكة عالية وربت على كتف جمال :
- وأين السندباد الآن ؟
- لا أدري. أعرف أنه رحل، سافر، وأنه ترك وصية.
- لمن تركها ؟
- عند صديقه أي زوجته.
- زوجته أو صديقه أنا لا أفهم هذه الـ"أي".
- لا علينا. المهم في الوصية.
- وما تقول الوصية ؟
- حسب ما ذكر صديقي، يقول السندباد..
- فجأة دخل فارح والدم يسيل بغزارة من جبهته العريضة، وهو يصيح :
- أخي جابر ! جابر ! ضربوني ! قتلوني ! أخذوا مني الهاتف الجوال ! طعنة سكين...
- ذهل جابر ميمون. أجلسه على كرسي. اتسعت حدقتا جمال. دخلت امرأة تجري :
- أنا رأيتهم. طعنوه من الجانب الأيمن.
- رفع جابر القميص، فرأى الدم يسيل بغزارة من مكان الطعنة فرفع الهاتف وأعلم الشرطة والطبيب. أما جمال فتناول خرقة نظيفة وأخذ يمسح جبهة فارح. لم يكن الجرح غائراً مثل طعنة البطن.
- أه... أه... قتلوني. أولاد الحرام... أولاد الـ... خاصة ذلك الـ... وصاحبه، أظن أنه...
- بقيت يد جمال ضاغطة على الجرح، وبعد لحظات سمعوا صفارة الشرطة. أخذوا يحققون معه فيما كان الطبيب يفتح محفظته، التفتت إلى جابر :
- الجرح عميق. يجب نقله إلى المستشفى.
- أرجو ألا يكون خطيرا يا دكتور.
- لا. لا. سنقوم بالواجب.
- قال جمال بعدما حملوا فارح وذهبوا :

- غريب. أي حظ حظه !
- كلنا معرضون للخطر... إنها الحياة.
- يا لها من حياة !
- نعود إلى موضوعنا.
- أي موضوع. فارح أخونا وأرجو ألا يكون جرحه قاتلا !
- لا أعتقد. سنهتف بعد قليل أو نذهب إلى المستشفى. أما موضوعنا فهو السنديباد. ما هي الوصية إذن؟!
- أه.. السنديباد. قالت صديقتي، أي زوجته، إنه ترك وصية يقول فيها : "إذا عدت سالما فسأروي لكم الغرائب والعجائب والأهوال التي أنا مقدم عليها. أما إذا ضاعت أخباري ولم تعثروا على أثري أو إذا بلغكم خبر موتي فانهبوا إلى "غريب" في العنوان التالي. وقولوا له إن النسر الملكي هو السبب وسيعطيك كل أخباري وأسباب موتي وصرة المال التي أودعتها إياه قبل سفري. أما إذا عدت فالوصية لا قيمة لها. وأرجو أن لا تذهبوا إليه وألا تتعرفوا عليه. وهذا هو العنوان (.....).
- فجر جابر ميمون فاه، واستبد به العجب وتنهد كمن يتنفس الصعداء وقال :
- غريب أمر هذا الرجل. لا يمر زمن حتى يطلع علينا بغرائبه وأفكاره. إنه فنان في حياته، وأنا لم أر منه إلا الخير فهو متفهم ويعرف آداب الصحبة والمجالسة.
- ثم فرك أذنه وصاح :
- أين أنتم يا زبائن؟ أيها المنتشرون على الأرصفة وأمام المطاعم والحانات. طبخت لكم الكسكسي والأطباق المغربية الفاخرة وجلبت الخمر المعتقة ورتبت المطعم وأحضرت من يقوم بتزييقه وتنميقة ومن يرسم على جدرانه صور الصحراء والطبيعة وأضأت الشموع الملونة ووضعت الزرابي والنمارق والمساند وحرقت البخور اليمني وهيات الموسيقى الشرقية والمغربية الرائعة وأنتم لا تدخلون ولا تسألون ولا تنظرون.
- بقي جمال صامتا يفكر في مصير فارح ويتململ في مكانه وأضاف جابر :
- أيها الزبائن. سوف أسوقكم كما تساق غرائب الإبل. وسألهب ظهوركم

بأثمان غالية لا تطاق. وستدفعون صاغرين وستحجزون أماكنكم قبل
المجيء. أما الآن فبإمكانكم الهروب... اهربوا ولسوف تعودون. أنا هنا
بالمرصاد !
والتفت نحو جمال :

- أخي جمال، لا تلمني، فقد خرجت عن طوري. أريد زبائن، حرفاء، وأنا
مستعد أن أقدم أطباقي مجانا. المهم أن يدخلوا. أن أضع أمامهم ما
أحضرت من فاخر الطعام والشراب. الوحدة لا تطاق. وأنت تعرف أن الأطباق
لا تصبر في الحر.

- صحيح. الصيف حار هذا العام، والأطعمة يجب أن تؤكل في يومها.
سأذهب للأطمئنان على فارح.

- فارح... هو صديقي. أتعرف أننا كنا نسكن في نفس الحي. وأعرف إخوته
وأخواته. أه أين تلك الأيام ! كنا نضحك كطفلين كما كنا نفعل صغارا، ونشرب
ونسكر، ولكنه صعب شديد إذا تعلق الأمر بالمال والأعمال، حينئذ، لا صديق
له... بل على العكس يضيق على أصدقائه وذوي قرياه أكثر مما يضيق على
الآخرين. إنه وحش من فصيلة لا يجدي معها شيء. وأنا أحبه كما هو.

- علينا أن نأخذ من الإنسان الناحية الإيجابية ولا ندخل في التفاصيل. فلن
نستطيع تغيير البشر بل نكتفي بالمحاسن. أين الإنسان الكامل وأين
المعصوم من الخطأ !؟

دخل رجل وامرأة مسلمين فرد جابر التحية وهلل وانفرجت أساريره :
- أهلا بكما.

ثم وضع أمامهما قائمة الأطباق.

- بماذا تنصحنا يا سيدي ؟

ابتسم قليلا ولمعت عيناه، تقدم خطوة نحوهما :

- لدي كسكسي "غروت" وكل أنواع الكسكسي.

- وما هو "الغروت" ؟ قالت المرأة.

- إنه كسكسي وضعت فيه الحشائش البرية النادرة وأحضرت مرقه
خصيصا ثم أقدمه جاهزا للأكل. جرباه وستريان.

- جيّد... وماذا لديك من الخمر ؟
 قدم لهما قائمة الخمر فاختر منها ما يريدان ودخل المطبخ خفيًا. أما جمال فكان ممسكا بهاتفه يريد الاطمئنان على فارح.
 أجابه الممرض على الخط :
 - لا أستطيع قول شيء. إنه في غرفة العمليات.
 - العمليات. أية عمليات ؟
 - يا سيدي. إنه في حالة خطيرة. فاطعنة كادت تلامس...
 امتقع لون جمال وصاح :
 - الكبد ! الكبد !
 - نعم. وستقوم بالواجب فاطمئن يا سيدي. إلى اللقاء.
 وضع السماعة وبقي مسمرا في مكانه صامتا. أما جابر فكان يحضر المائدة ويملوها بأطعمته وشرابه.
 كان الزبونان فرحين. شكراه على طعامه الطيب وحسن الاستقبال وطلبا طبقا من الحلوى وآخر من الثمار.
 همس جمال في أذنه :
 - فارح في غرفة العمليات.
 - شفاه الله. أرجو ألا يموت فهو صديقي وأخي ثم لا تنس أن آخر كأس شربها كانت في مطعمي. يا لها من مصيبة لو مات. لعن الله الخمر. ما لي أنا والخمر؟
 سلم الزبونان وخرجا مبتهجين.
 قال جابر كأنه يحدث نفسه :
 - يكفيني أربعة مثل هؤلاء. أنا أريد الجودة وأربعة أشخاص مثلهم أفضل من عشرين من أهل بلدي خاصة من هؤلاء الرهط الذين يدخلون المطعم ويشربون الشاي، وأحيانا، منهم من يأكل الحلوى ولا يدفع شيئا، بل هم يحكون لي قصصا عن هذا وذاك، ولا يحبون الخير لأحد. تصور يا جمال. اليوم صباحا وضعوا أمام المطعم كمية كبيرة من نبات "الحلبة". السحر هو آخر ما قدموه لي. سامحهم الله وأبعدهم عني.

أخذ جمال الهاتف وبعد لأي جاءه الصوت :

- نعم. من أنت ؟
- أسأل عن ابن عمي، فارح دغريير.
- بعد لحظة جاءه الرد :
- أنا أسف. هو في حالة خطيرة بين الحياة والموت.
- امتقع لونه ووضع مضخم الصوت حتى يتمكن جابر من الاستماع
- وماذا يمكن أن نفعل ؟
- لا شيء. الانتظار.
- حسناً. شكراً إلى اللقاء.

قال جابر :

- نذهب إلى المستشفى أو نقوم بإعلام عائلته.
- لا فائدة في هذا. إذا أردت، نذهب إلى المستشفى أولاً. ثم نرى ما يمكن القيام به.

خرجاً شبه زاهلين وتوجها نحو المستشفى، وما لبث جابر أن قال :

- كل هذا من أجل هاتف منقول.
- لكل أجله.
- أيّ أجل. الرجل لم يميت !
- قال جمال :
- المفروض هو إيقاف المجرمين.
- من يستطيع إيقاف هؤلاء ؟ من يعرفهما ؟
- المرأة قالت إن القصير يرتدي قميصاً أحمر.
- دعك من القميص الأحمر. لا فائدة في هذا. ها قد وصلنا.
- نزلاً من السيارة ودخلا المستشفى الكبير وصعدا الطابق الرابع وجلسا في قاعة الانتظار مقابل غرفة العمليات ينتظران.
- خرج الممرض ذو البدلة البيضاء واضعاً الكمامة على وجهه فسألاه :
- كيف حاله الآن ؟ أفاق أم لا ؟
- لا أستطيع قول شيء علينا الانتظار.

9

في الساعة السادسة مساءً، فتحت القاعة أبوابها وتوافد الناس من كل مكان، فهي قاعة شهيرة تقع بالحي السادس وكان من بين الرسامين الذين قاموا بعرض لوحاتهم فيها دالي وبيكاسو وحتى ملك بلجيكا، والممثل العالمي أنطوني كوين وغيرهما من الرسامين البارعين والمشهورين. كان غريب يرتدي قميصا أبيض ناصعا ولم يكن شعره منفوشا بل خفيفا ممشوطا لامعا، وحتى أسنانه لم تعد صفراء بل تكاد تكون ناصعة البياض. كان مبتسما، هادئا.

كانت لوحة النسر الملكي تتربع على الجدار المغطى بالحرير الأحمر القاني. وعلى جانبه لوحات أخرى كتبت أسماؤها على ورق أبيض تحتها. نقرأ من بينها : "مستقبل الأرض. عودة الروح. الجيل الجديد. قرية دقاش في اللحم" وكان كثير من الحاضرين مبهورين بلوحة النسر الملكي فكأن عينيه الحادتين تمارسان تأثيرا مغناطيسيا على المشاهدين.

سأله رجل وقور بنظاراته السمكية :

- كيف خطر ببالك رسم النسر الملكي ؟

تردد قليلا وقال في سره "من أخبره بقصة النسر والسندباد ؟ على أي حال، أنا لا أبوح بالسِر لأحد" قبل أن يجيب :

- النسر جائني في المنام. وقال لي أريد لوحة كبيرة أتربع عليها ليراني كل الفنانين والرسامين والنحاتين والأدباء والمفكرين. أنا مستقبل العالم.

- أه... جميل. لكن هل تعتقد أن هذا هو السبب الرئيسي لرسمك إياه ؟

- ربما... إن الفن لا يخضع للعقل. إنه حر طليق. حتى أنا لا أعرف لماذا أرسم. وقال في نفسه : «سيعرف الغرب يوماً ما يعهده الشرق».
- فعلاً... أنا أيضاً رسام. وعرضت في بلاد العالم جميعاً. خذ. هذه بطاقتي. كلمني متى تريد وسأمكنك من عرض لوحاتك في أرقى القاعات بفرنسا وألمانيا واليابان وإيطاليا.
- تقدم منه رجل آخر :
- هذا النسر يخيفني ويجذبني. أصبحت كالفراشة التي تلعب بالنار حتى تحترق. غريبة هذه اللوحة، مع أنها رسمت على الحاسوب.
- أجابه الرسام الشيخ :
- صحيح، لكن الحاسوب لم يرسم شيئاً. يد الإنسان، عينه، عقله وجدانه هي التي ترسم. وليس كل من يستخدم الحاسوب قادراً على رسم هذا النسر الملكي. إنها تكاد تكون معجزة. كيف وصلت إلى هذه النتيجة الفذة. صدقوني. قليل من الناس يعرف أنها رسمت على الشاشة. إنها سحر.
- ردّ غريب وكله ابتسام وعيناه تتراقصان في محجريهما والدموع تكاد تهمني منهما :
- النسر الملكي هو الذي جاءني. جاءني في منامي ثم ملك عليّ حياتي ولازمني. وأخافني وأحبني وحنأ عليّ واستأنس بي. هي قصة طويلة قد أحكيها يوماً بتفاصيلها.
- قالت عجوز شمطاء تلبس ثياباً فاخرة وتفوح منها روائح العطر الرفيع وفي عنقها يتلألأ اللؤلؤ والزمرّد :
- أنت رائع. هل عرضت لوحاتك قبل الآن ؟
- لا... هذه أول مرة تقريباً. لقد كانت لي محاولات لما كنت تلميذاً بمعهد توزر.
- صحيح ؟ أول مرة ؟! قالتها وهي تكاد تختنق.
- نعم. لكن يخيل إلي أنني عرضت آلاف المرات، وأن النسر الملكي يلازمي منذ عرفت الحياة.
- قال الشيخ الرسام :
- وسأكتب مقالاً في صحيفة "لوموند" وأحكي فيه عن لوحاتك.

أضافت العجوز شبه هامسة :

– أنا سعيدة بهذا العرض وسأعود لأشاهد اللوحات مرة أخرى، سأهتف لابنتي جيزال، إنها تعشق الرسم ولن أدع الفرصة تفوت، وربما تقنتي بعض اللوحات لعرضها في صالونها الخاص.

طربت نفس غريب وودّ لو يطير لولا أن تذكر السندباد، فتجهمت أسارير وجهه واعتراه شبه ذهول وكاد يغمى عليه، وإذا بالرسام الشيخ يربت على كتفه ويأتيه صوته :

– عزيزي. أتركك الآن، كل الحاضرين يريدون الحديث معك. وهذا الصحفي ينتظرك منذ ساعة حتى تنفرغ له. لا تنس أن تكلمني في الهاتف.

من الغد التف خلق كثير حوله، وهو بين مصدق ومكذب. كيف فتحت له أبواب الشهرة بهذه السرعة المذهلة، أين كان قبل الآن وهو الذي أمضى عشرين عاما في باريس وضواحيها طالبا ثم عاملا ثم عاطلا ثم باحثا في علوم اللغة والحاسوب والتاريخ؟ لو كان يدري أن حظه سيكون في الرسم لرسم وعرض وسافر. أما الآن فما هو ذا يتحول إلى نجم. الجميع يريدون الحديث معه ودعوته إلى العشاء. حتى إن قناة حرة سارعت اليوم وعرضت عليه شراء لوحاته وحقوق نشرها وتوزيعها على قنواتها. كما أن صحفيا بارزا قال له: "هذه اللوحة أجمل من لوحة الموناليزا، فالنسر عنوان الفخر والعزة والقوة وهو جذاب ساحر وغريب".

جاءه جمال بيتسم فتهتز لحيته الكثة ويمسّد شعره الذي غزاه الشيب وهنأه بصوته المرعد فاهتز طربا وفزعا، وما عتم أن قال له:

- لوحة النسر تساوي مئات الآلاف، وستعرف قيمتها عما قريب.

- لا يهم المال. المهم هو نجاح المعرض.

- أي نجاح! المعرض نجح الآن. ألا ترى مئات الأشخاص يتوافدون على القاعة كالنمل من كل حذب وصوب. إنها صفوة المجتمع وزيدته وعصارتة وروحه. وهم بين فنان ورجل أعمال وتاجر وهاو للرسم ومتاجر به. ألا ترى هؤلاء العجائز يرتدين الحرير ويتحلين بالألماس ويتكلمن بلهجة بورجوازية كأنهن أطفال يتهجون الحروف؟

- أشكرك على الحضور مرة أخرى.

– لا شكر. هذا واجب ثم إن السندباد أوصاني قبل سفره أن أكون حاضرا
دوما لأعلمك وأذكرك بالوصية.

– دعني الآن من هذا.

– لا... أنا لا أريد الإزعاج، بل التذكير. هيا أتركك لضيوفك. نلتقي بعد إغلاق
القاعة.

عاد إلى ما كان فيه من حديث وتواصل وتعالق الأصوات والضجيج وما من
أحد لم يقف أمام لوحة النسر، وما من أحد لم يتساءل عن السر الذي جعله
يهتز ويشعر بالظفر واللذة.

10

- همس فتحي "الأحمر" في أذن فريدة منصور قائلاً :
- إن في الأمر سرًا، وليست الأمور بهذه البساطة.
 - هذا ما يخيل إلي يا فتحي. أتعلم أنني أثق بك مع أن صداقتنا جديدة.
 - كوني مطمئنة فهو إنسان إذا وعد وفى بوعد.
 - ومتى نذهب لنراه.
 - سأخبرك بذلك في حينه. فقط هديني من روعك واستريحي فهذا مهم.
 - وكم من المال يطلب ؟
 - المهم في النتيجة وهو سيقول لك ماذا يريد حالما تقابلينه.
 - وهل جربته ؟
 - عشرات المرات. وأنا واثق أن يده تجمد الماء !
 - وكان الشفاء سريعاً ؟
 - بضعة أيام أو بضع ساعات.
 - لمعت عيناها وأخذت بيده فشعر بحرارة تسري في بدنه، ثم ضغطت عليها وقالت :
 - آه لو أشفى من هذا ! سأكون مدينة لك بذلك طوال حياتي.
 - خطرت في ذهنها فكرة، لم تتمالك أن قالت :
 - أخي فتحي. أنت متزوج ؟
 - ذهل والتفت إلى الورا ثم تنهد :
 - كنت متزوجاً. ولى ابنة أحبها كثيراً. أمها حرمتني منها. وأنا اشتغل الآن

ليلَ نهار حتى أنسى . كانت أيام كأنها حلم لذيذ . هذا هو قدرتي . أن أتعذب .
لقد انقلبت زوجتي عليّ وأذاقتني ألوانا من الألم . وإخوتها جاؤوا وضربوني
وكسروا أنفي ، غدروني . بعدما كانوا يحترموني ويمسحون حذائي .
صدقوها وكذبوني . لا أدري لماذا بعض النساء يتغيرن ويصبحن ذنُبات
ماكرة .

– ثم نظر عن يمينها بهدوء وقال :

– أرجو المعذرة . ليست النساء جميعهن سواء . الطيب والخبيث في كل مكان .
ردت بلطف :

– لا عليك يا فتحي . لسنا جميعا من طينة واحدة . أنا أيضا خدعني خطيبي
وشهرّ بي ودمر حياتي . إنه مكتوب علينا ولا مهرب منه .
سرح فتحي بعيدا فتراعت له حياته شريطا من الذكريات ، نهض متثاقلا وهو
يقول :

– فريدة، إلى أين أنت ذاهبة ؟

– إلى بيتي . يجب أن أنعم بقليل من الراحة . وأضافت :

– يجب أن تكون حاضرا يوم الموعد .

– طبعا، لكن لا داعي لأن أدخل معك لمقابلته . أنت فتاة كبيرة وتعرفين
مصالحتك .

– لا يهم . أنا كليّ انتظار وأعول عليك .

– نعول على الله أولا . إن "الشيخ عمر سلحوف" رجل ذو شأن كبير، إذا قبل لا
يثنيه أمر عن الوصول إلى ما يريد، وإذا رفض فكل مال الدنيا لا يجعله يغير رأيه .

– واسمه غريب بعض الشيء، ألا تشاطرنني الرأي ؟

ضحك فتحي فاحمر وجهه وظهرت عليه نقاط أكثر حمرة فهو أشقر ولقب
بالأحمر منذ نعومة أظفاره، وقال إنه نسي كل همومه وآلامه :

– هذا ليس اسمه الحقيقي . إنها كنية . مثلي أنا، فالأحمر ليس لقبني الحقيقي
مع أن كل الناس ينادونني "الروح" أي "الأحمر" .

قالت مبتسمة :

– ولكن قلبك أبيض يا فتحي .

- ربما. إياك من المظاهر.
- لا تنس أنك كنت أول من يساعدي ويضيع ساعات طولا حتى أعافى مع أنني لم أكن أعرفك ولا تعرفني.
- هذا أمر طبيعي. أنا في الحقيقة أحب الناس جميعا.
- سيعطيك الله على قدر كرمك وطيبة قلبك.
- نطلب من الله العافية والسلامة.
- تناول كأس الجعة وأضاف :
- وهذه الخمر. متى أتوقف عن احتسائها. إنها عادة سيئة !
- وماذا قال الشيخ عمر سلحوف ؟
- هو لا يدري أو غير متأكد أنني أشرب خمرا.
- لماذا كتمت عنه هذا الأمر ؟
- ردّ بضيق :
- عرفته في المسجد. إنه جنون. كيف أقول له بأنني أشرب الخمر وقد التقينا في المسجد !؟
- تعجبت قليلا :
- متى كان ذلك ؟
- منذ أربعة أعوام. قبل الطلاق. كنت شخصا مثاليا. أشتغل. أعود إلى البيت، أقبل ابنتي واهتم بشؤون بيتي و...
- قاطعته فريدة :
- كيف إذن حصل ما حصل ؟
- هذه قصة أخرى.
- ثم أضاف :
- إذن، كما اتفقنا. نهاية الأسبوع في نفس المكان. نفس الساعة. نفس الأشخاص.
- ضحكت ثم مدت يدها مسلّمة. ركبت سيارتها الحمراء وانطلقت بها، فيما كان فتحي يتابعها بعينيه ويقول في نفسه مرددا :
- صحيح أن كل شيء يأتي في حينه.

11

- تقدم سفيان خطوة وسلم على جمال بحرارة ثم حدق فيه هنيهة وقال :
- جمال. كيف حالك ؟
 - بخير وأنت ؟
 - إن تركنا هؤلاء السفلة فنحن بخير. هل من جديد ؟
 - الجديد. هو المعرض العظيم الذي قام به غريب.
 - أرجوك. لا تقل عظيم. اتركني أزره وأقرر إن كان عظيما. دعونا من الألقاب والغرور. حتى "بيكاسو" و"دالي" و"فان غوغ" ليسوا عظماء بالمفهوم الصحيح للعظمة. أتدري أن النرجسية إذا صادفت إبداعا فهي مشروعة أما إذا أصاب البشر الغرور فهو مريض لأنه مدع ومتطفل. كلنا مرضى يا أخي.
 - سفيان. أنت عالم نفساني وترى العالم من خلال هذا. لسنا في عيادة ولا في تريبص أو محطة نقاهة.
 - نقاهة. هذا أقل ما نحتاج إليه. هات لي عنوان القاعة. لكن قل لي هل لديك أخبار السندباد ؟
 - السندباد بخير. أنا الذي لست بخير.
 - ما لك ؟ مريض ! أصابك اكتئاب طارئ أو وعكة مفاجئة !
 - كل هذا معا. لكن الأكثر إزعاجا هو بيتي.
 - مالنا وهذا ؟ اسمع. أنت تحيرني. وأنا أكاد أنقم عليك.
 - عفوك ورضاك. لماذا تسخط علي وأنا أحاول دائما كسب صداقتك.
 - شكرا لكن هذا غير كاف. ماله بيتك ؟

- قصة بيتي معقدة. سافرت هذه السنة ست مرات وفي كل مرة أجد حلولاً وتتعدد الأمور أكثر. مرة مانعت البلدية فتح نافذة على الشارع، ومرة أخرى سرقوا مواد البناء وكسروا لي الباب، وأخرى أجبروني على دفع آلاف الدينارات لإيصال النور حتى بيتي، ولما قدمت قضية لدى المحاكم أعادوا لي المال وأنصفوني لكنني خسرت ثمن تذكرة السفر وتكاليف الإقامة. المهم. آخر مرة، تصور المشكل الذي تعرضت له.

- لا. لا أتصور شيئاً.

- يا سيدي. بدأت جارتني في بناء بيتها وما راعني إلا والمقاول يهتف لي قائلاً إنها استولت على مترين من أرضي على مسافة عشرين متراً أي أربعين متراً مربعاً مدعية أن لها حجة الشراء. وكالعادة هرعت إلى «تونس الجوية» واقتنيت تذكرة وأضعت أسبوعاً في البحث عن الوثائق والاتصال بالمحامين والمهندسين والخبراء.

قاطعه سفيان:

- لم كل هذا؟ هل أنت تبني بيتاً أم قصراً من قصور ألف ليلة وليلة؟
- المهم. ربحت القضية لكن أنفقت أكثر من ثمن الأرض التي كنت سأخسرهما.

- الحياة يا عزيزي ربح وخسارة، وعلينا أن نحقق الدرس. يوماً نربح ويوما نخسر. يجب أن تعرف كيف تخسر وبذلك تربح. قل لي، ومتى ستسكن هذا البيت؟

- عما قريب بحول الله. بقي لي ثلاث سنوات ثم أطلب الحصول على الشيخوخة المبكرة. أنا تعبت من العمل. الأولاد كبروا وهم لا يريدون العودة. إنهم من طينة جديدة. عرب فرنسيون مسلمون، وهم في الحقيقة خليط من الثقافات واللغات والانتماءات.

- وأين يقع هذا البيت؟

- بحمام الأنف، قريباً من البحر.

- أي بحر؟ أنت تحب البحر؟!

ضحك جمال ومسح لحيته وقال:

- أه. ذكرتني في الرحلة. ما أروعها.
- أتذكر ذلك اليوم الحار وذلك الشاطئ الجميل، وشوارع مدينة "دوفيل" وأرصفتها النظيفة ؟ ورغم ذلك الحر، فأنت لم تسبح في البحر بل فضلت النوم حذو الشاطئ.
- صحيح. كنت مريضا يومها.
- على أية حال مبروك. وإن شاء الله، تسكن بيتك وتقضي به أياما وسنوات، وبذلك تتفرغ لكتابة مقالاتك التاريخية والفكرية.
- ابتسم جمال فظهرت أسنانه البيضاء وأحس بنشوة عابرة :
- صدقني، ما أتممت بناء البيت حتى أصبحت خبيرا في شؤون النزاعات على الأرض وتخصصت في معرفة أثمان الإسمنت والحديد والقرميد والرمل والجص والصخر والطلاء و...
- انفجر سفيان :
- كفى. أصبنتني بالدوار. جمال، هات عنوان القاعة.
- تناول جمال بدلته القديمة الصفراء وأخرج ورقة صغيرة وكتب عليها العنوان كعادته بقلم الرصاص ثم قال :
- جابر. جابر هات لي كأس ماء. نسيت تناول حبات الدواء.
- هرع جابر :
- خذ هذا الماء. أو لعلك تريد كوبا ؟
- شكره جمال ثم نظر نحوه وأضاف :
- فارح يسلم عليك وهو يقول لك : "سأخرج معافى، وسأعود إلى مطعمك وأشرب على نخب الصداقة، أنا وراءك والزمن طويل".
- ضحك جابر :
- إنه عنيد وشرس حتى وهو مريض. هذه المرة أفلت من الموت بأعجوبة.
- قال جمال :
- أنا أيضا أضعت هاتفي أمس. نسيت به مطعم. وعدت لعلي أجده فلم أعثر له على أثر. هذه مصاريف زائدة وخسارة مال.
- تكلم سفيان :

- يا جماعة، إلى اللقاء !
- ثم ربت على كتف جمال :
- كما اتفقنا. نلتقي هناك يوم الأحد.
- أي أحد ؟ أنا مسافر بعد يومين إلى مدينة "ليون". نؤجل الموعد إلى وقت آخر.
- لكن قد لا يحتمل الأمر كل هذا التأجيل.
- لن أعود قبل أسبوعين ولنا الوقت الكافي لنتقي بعد عودتي.
- حسنا. سنرى ذلك بعد عودتك.
- ودعهما وخرج يحمل محفظته الكبيرة يكاد ينوء بها وهو يردد :
- سأرى المعرض "العظيم" غدا أو بعد غد.

12

تنحنح السندباد وكاد يصيبه الذهول وتوجس خيفة من الأمر وتساءل في نفسه : عليّ أن أكون يقظا لعل في الأمر سرا ! استمع بصمت وأدار الكلام على جميع وجوهه، تأمل في هذا الوجه الملائكي، وفكر في رحلته الطويلة وانتابته حيرة مفاجئة. كان يستشرف مرحلته الآتية ويغوص في حاضره المتقلب ولا يدري هل يواصل الحديث معها أو يهرب منها. من أين أنت ومن أي علياء نزلت هذه المرأة. هل هي الصورة الحقيقية لسر النسر الملكي الذي ملك عليه حياته وأودعه صديقه غريب. هل هي مبعوث منه أو علامة له أو هي توهمات مغامر مثله لا تني أن تتلاشى ولا يبقى منها سوى الذكرى والتخيل ؟

لم يتمالك إلا وهو يأخذ بذراعها برقة وحذر ويقول :

- وأنت ما اسمك، إذا سمحت ؟

ابتسمت وازدادت منه قربا وقالت بلغة عربية ذات لكنة أعجمية محببة :

- اسمي "ألبان"

قف شعر رأسه وأصابه دوار ثقيل وقال :

- صحيح. صحيح اسمك "ألبان" ؟

- نعم. سمّنتي أمي تبركا وعرفانا للجميل لعمتها الإسبانية "ألبان غونزاليس". ألم تسمع بها من قبل ؟

- لا. هذه أول مرة أسمع بهذه المرأة. أما اسم "ألبان" فأعرفه.

قال هذا وسرت في بدنه قشعريرة خفيفة وتداعت ذكريات وتداخلت أحداث.

- كان كمركبة يعبث بها موج عات.
- أضاف باهتمام محاولا جمع بعض قوته :
- ألبان. من عمك هذه وما قصتها ؟
- نظرت في عينيه الحائرتين وقالت :
- عمتي أي عمّة والدتي "ألبان غونزاليس" امرأة ذات شأن كبير. كانت مهتمة بالحضارة العربية الإسلامية وتاريخ المسلمين في إسبانيا، وهي مستشرقة معروفة. سكنت بجوار قصر الحمراء مدة طويلة ووهبت حياتها للبحث والدرس وقضت بقية حياتها تصلي بعدما اعتنقت الدين الإسلامي عن اقتناع تام. وقد كانت امرأة بارعة الجمال يضرب بها المثل في الحسن، وذات أخلاق رفيعة عالية لكن المسكينة تزوجت مرتين ولم تنجب. كانت أمي بمثابة ابنتها وتربت على يديها.
- أفاق السندباد من زهوله :
- جميل. إنها امرأة عظيمة. ومتى توفيت ؟
- توفيت رحمها الله في الثمانينات عن سبعين عاما. ودفنت في مقبرة المسلمين بغرناطة مدينتها المحببة، بعدما تجولت في أرجاء الدنيا.
- أرجو أن تكوني ذائعة الصيت مثلها. وأن يكون حظك أفضل من حظها عاطفيا.
- ثم أضاف متسائلا :
- كانت رحالة؟!
- نعم. اهتمت كثيرا برحلات ابن ماجة وابن بطوطة وغيرهما من الرحالة. بهت السندباد وقال في نفسه : "أية صدف. يجب أن أجمع شتات نفسي". ثم ردّ بهدوء :
- هل كتبت عن رحلاتها ؟
- كتبت كثيرا وقدم التلفزيون الإسباني بعضا منها ولاقت نجاحا وإقبالا كبيرين.
- أنت بحق هدية هبطت لي من السماء.
- كيف ذلك ؟ قالت متسائلة وقد غزت وجهها حمرة زادتها جمالا على جمال.

- أحقا تتسائلين ؟ ألا تعلمين أنك بارعة الحسن وفائقة الذكاء ؟
- الحسن ربما، أما الذكاء فلا أدري.
- طيب. ما الذي جعلك توقفين السيارة هنا بالذات ؟
- لا أعرف. كنت أريد التوقف قليلا. ولم أشعر إلا وأنا أحميد إلى اليمين وأدخل هذا المكان المخصص للاستراحة.
- يا لها من مصادفات ؟
- حياتنا كلها هكذا. كثير من الأشياء المحببة تأتي مصادفة وأنا لست نادمة على توقفي هنا.
- أشكرك على المجاملة مع أنك لم تجيبي عن سؤالتي "ألبن" ... إنك "ألبن" بحق. رحم الله عمك.
- وأكاد أكون نسخة منها. لقد عرفتھا ولازمتھا في أواخر حياتھا.
- لا. لا. أنا أرفض أن تبقي وحيدة طوال حياتك. وأنت الآن في مقتبل العمر وفورة الشباب.
- يا سندباد. وماذا تفعل هنا !؟
- أنا الذي من المفروض أن يسأل ثم ألم نتفق على قانون اللعبة. هل أنت ذاهبة نحو إسبانيا ؟
- نعم، وسأحط الرجال بمدينة قرطبة وأقضي بها يومين ثم أعود إلى طليطلة وبعدها أقيم بضاحية غرناطة ليس ببعيد عن "سييرا نيفادا"
- إذن أنت مستعدة لسماح ما سأرويھ لك ؟
- طبعاً. ألا تري بأنني على قدر من الشجاعة ورباطة الجأش ؟
- ألبن، ليس فقط هذا بل إنك خطر داهم وربما موت زؤام.
- ابتسمت وكادت دمة تسيل من عينيها والسندباد يتابعها بعينيها الواسعتين كأنه يستقرئ ما فيهما وقد تملكه شعور لذيذ خفيف.
- نظر نحو اليمين ونحو الشمال ثم قال بهمس :
- اسمعي يا "ألبن". أولا أطلب منك الصفح لو بدرت مني كلمات جارحة أو أسئلة محرجة فأنا أحس بك قريبة مني مع أنني لا أعرفك أنت بالذات. وسأبوح لك بسر لا أريد أن تفشيھ لأحد.

تجهم وجهها قليلا واتسعت حدقتها واعتدلت في جلستها معتمدة على جذع الشجرة.

أضاف السندياد :

- "ألبان". على العكس مما قد تتصورين، وبالرغم من حرصني على استقبالك استقبالا حسنا، ما إن نطقت باسمك حتى اعتراني ألم قاتل وكدت أنفجر باكيا وساخطا عليك، غير أنني تماكنت نفسي وصبرت حتى أعرف نهاية الحكاية، فاسمك أعادني إلى فترة من حياتي لن أنساها وأثار أشجانا وأحزاننا أحاول الابتعاد عنها وهي تلاحقني وتنهشني كالحية الرقطاء. ألبان كانت حياتي فأصبحت موتي. كانت خلاصي فأصبحت سجنني. كانت تروي عطشي فأصبحت أكثر ظمأ وتعكر كبدي وانفطر. كانت نبع سعادتني وأصبحت مصدر شقائي. كانت أملني فأصبحت همي وبلائي. اقتحمت حياتي وخرجت منها كطيف النسيم. غزت لبي فأصبحت بحبها أهيم. كانت ملاكا يريح قلبي وتحولت إلى مارد تملك علي لبي. إنها قصة مجنونة. ألبان حلم رائع تكتب وقائعه بماء الذهب على خشب الأبنوس الأسود. أحببتها كما لم أحب وشممت عطرها كما لا يشم عطر ويضم. اشتيتها كما لا تشتهي امرأة، وغمرتني بعطفها ورقتها وأرتني من فنون الحب والدلال ألوانا وأحاطتني بأحاسيس لم أعرفها من قبل ولم أعرفها من بعد وقد لا أعرفها مرة أخرى حتى أوارى التراب. قمر ندي يحنو علي. شمس تضيء أيامي. شهاب ينير طريقي صوت يغمر فؤادي بدفء في ليالي باريس القارسة. شوق يظل ليالي بالشهوة والصبابة. عطر يداخل جسدي ويغسل ذراته بطيب اللقاء.

كانت "ألبان" تستمع إليه وقلبها يخفق ونفسها يضيق ولا تجرؤ على مقاطعته وكأنها تستزيد وتهفو لسماع كلماته الهادئة وتود لو لا تنقطع. واصل السندياد بصوته الأغن وهو يسعل :

- "ألبان" فانتني. ألبان قاتلتي. ألبان آتني. عرفتها ولم أكن أدري أنها ستكون قاتلتي. قرأت أن من الحب ما قتل، لكنني لم أتصور يوما أنني سأعيش صبابة تغويني وجمالا فتاكا يغريني وحسنا بارعا...؟ كانت تمثالا منحوتا من الحجر

الصوان لا تتكلم ولا تلتفت ولا تهتم بأحد. وكنت بها مغرماً، أحياناً أراها تمشي فأقف وأقول "تبارك الله أحسن الخالقين". كانت لوحة زيتية أو حقلاً يانعا يزهو فيه الآس والياسمين. وفي يوم ممطر كئيب أضاعت طريقي. كنت في المشرب حين جاءت. لم يكن به أحد غيري، فقد كان الوقت باكراً في ذلك الصباح، والتقت عيناها ولم ننبس بكلمة. شربت قهوتي، وشربت قهوتها ثم طلبت قهوة أخرى. تقدمت منها خطوتين وقلت: "صباح الخير" فردت وابتسمت. قلت لها بأني سعيد بملاقاتها وبأني أراها أحياناً في المكتبة أو في البهو الرئيسي، فقالت إنها لاحظت ذلك، وقلت لها بأني كنت أود الحديث معها، فقالت إنها تعرف ذلك. بعد ثلاثة أيام، كانت دهرًا. وكانت غمضة عين أيضاً كنت أقبلها. وظللت على تلك الحال أياماً وليالي، ولم أعد أفارقها أو أصبر عليها، ولم تعد تفارقني أو تصبر عليّ. وجاءت تسكن معي في بيتي بالدائرة الحادية عشرة بباريس، وأذاقتني من الرقة والعذوبة والدلال ما ينوء بحمله الخيال. كان صوتها الدافئ شؤبويًا من العطر المجنح ورضابها العسل المصفى في حقق من الأبنوس وشعرها المائل إلى الحمرة ظلال وارقة تحميني وتلهبني وتلهب أحاسيسي فأدس وجهي فيها لأشم طيبها وأنعم بغضارتها ورحيقها. ومرت الأيام وكنا سعيدين. وذات يوم عدت من العمل أتحرق للقاءها وضمها وتقبيلاً. لم تكن بالبيت. ومرت الدقائق كالساعات ولم تأت. ومرت الساعات ولم تأت. ولما تقدمت لتشغيل التلفزيون وجدت ورقة صفراء اللون قرأتها بلهفة: "عزيزي وحببي ومصدر إلهامي" آشور". قضيت معك أجمل أيام حياتي، فأنت أول إنسان أحبه من قلبي ووجداني، وأول من قطف ثماري وداخل جسدي وامتزج بروحي. أشكرك على إخلاصك وحبك وأقبلك من كل قلبي قبلة لا تنتهي. أن الأوان لأن أصارحك بالحقيقة وأعرف أنك ستفهمني وتعذرني حتى ولو كان الأمر صعباً، فأنا أيضاً أتألم، وحياتي أنت وحدك الذي يعرف تفاصيلها. لا تخف، فأنا مؤمنة وصادقة الإيمان لكنني قررت الرحيل قبل فوات الأوان. لو التقينا مرة أخرى لن أهرب ولن أتسلل كي لا تراني. سأقبلك وأشمك وأضمك وأحكي لك القصة من أولها. أقول لك الوداع أو إلى اللقاء. قبلاتي. حبيبتك دائماً "ألبان".

13

- أطل فارح بقامته الحديدية ووقف أمام جابر بجوار المطبخ وقال :
- ها أنذا حي أرزق !
 - الحمد لله على سلامتك. أنت محظوظ يا أخي.
 - محظوظ؟! أسبوع كامل وأنا أعاني وكبدي كاد يتفتت ! هيا اسكب لي كأسا على نخب الصداقة.
 - لم أعد أبيع الخمر. لقد حولت المطعم إلى قاعة شاي.
 - انتفض في مكانه وصاح :
 - مصيبة ! ماذا فعلت بنفسك وبمطعمك ؟
 - لا أريد أن أكون سببا في هلاك الناس. الخمر لا تثمر إلا ألما ومصائب.
 - تصور لو كنت صاحبا يوم طعنوك. لو لم تكن.... ما تجرأ هؤلاء الأشرار على التحرش بك فأنت عملاق....
 - عملاق أنا قزم طالما لم أشرب، كيف أفعل، أين الصداقة ؟ تخون العهد يا جابر ؟
 - أي عهد ؟ لا أبيع خمرا بعد الآن وكفى.
 - إذن فلنشرب آخر كأس ولنفتح صفحة جديدة.
 - فارح. لقد أهرقت ما بقي من قوارير الخمر.
 - صاح في وجهه :
 - خسارة، خسارة. ألم تفكر على الأقل في إهدائها لي أو لأحد الأصدقاء ؟
 - وماذا عساي أن أفعل بعد الآن ؟ أصبحت يتيما حقا.

وانفتح الباب وأطل صالح :

-السلام عليكما. أهلا بك يا فارح. لقد سمعت من جمال بما وقع لك.

قاطعته :

- هذا ماض بعيد، اليوم نحن أحياء وعلينا أن نعيش. أسمعنت ؟ نعيش
فالحياة قصيرة. أين الشباب. أين حبي، أين ذكرياتي ؟ أنا ذاهب فلي شغل
كثير ينتظرنني. كثير من الخلق سيسافرون. هذه السنة سنة خير وبركة.

رد جابر :

- إذن فالأمر بخير. احمد الله على الأقل.

- الحمد لله. وكالة الأسفار تعج كل يوم بمئات الحرفاء حتى أنني أصبحت
أغلق الباب وأدخلهم واحدا واحدا.

- أدام الله هذه النعمة، قال صالح.

تأفف جابر وقال في نفسه : أعرف أن هذا العفريت سيذهب إلى مقهاه
المعتاد ويسكر. إنه شرس ومخادع ويريد إيهامي بأنه سيعود إلى بيته باكرا.

ثم تنهد وقال بصوت شبه هامس :

- صالح أين صديقك جمال ؟

رد بهدوء المعتاد وعيناه الصغيرتان تتراقصان:

- هتف لي أمس وقال إنه سيسافر.

قاطعته فارح :

- إذن مع السلامة.

خرج لا يلوي على شيء.

وضع جابر كأس شاي أمام صالح قائلا :

- الآن بقينا وحدنا. هذا الشخص الذي يدعي أنه صديق العمر لا فائدة
ترجى منه. فهو أناني، وفي كل مرة أحتاج إليه لا أجد منه إلا الكذب
والمداورة.

- الناس أنواع وعلينا قبولهم أو رفضهم. لن تغير العالم بلمسة سحرية.

- إن لم نتلاءم معهم نهجرهم فالعالم واسع وفسيح، وكل من يبحث عن شيء
يسعى إليه. ألا تشاطرنني الرأي يا صالح ؟

حوقل ومسح جبهته البيضاء ونظر ذات اليمين وذات الشمال ثم حدّق في وجه جابر وقال :

– أشاطرك الرأي. هات لي العود فقد اشتقت إليه.
أخذ العود وبدأ يداعب أوتاره مغمضا عينيه وغاص في عالمه كأنه مسحور.
ولما أفاق من غفوته كان جابر تائها بدوره. فبادره بالقول :
– إنه عود حسن الصوت. لكن لسوء الحظ له جحش فلتان.
ضحك جابر حتى فاضت الدموع من عينيه :
– لا تتركه يفلت. إننا بحاجة إليه. حتى العود أصبح له جحش فلتان.
وانفجر ضاحكا من جديد وبدنه يهتز بقوة، وصالح يبتسم بلطف ويضيف :
– سأحاول إصلاح هذا العطب أو إن شئت أعطيك عنوان مصلح العيدان،
فحرام أن يبقى العود هكذا مكسورا.
فجأة دخل فارح مهرولا لاهتا :

– جابر. أنا غيرت رأيي لا أريد العودة إلى البيت.
كانت رائحة الخمر تنبعث منه وعيناه محمرتين.
– إذن قمت بزيارة "الملعقة الفضية" وسكرت !
– ماذا عساي أن أفعل؟! أتعلم أنني لا أشرب الخمر لأنها خمر ؟
– كيف ؟ ماذا تقول ؟ ولماذا تشربها إذن ؟
– لأنني لا أساوي شيئا دونها. ولا أفكر جيدا ولا أجد الحلول لمشاكلي
دونها، فهي تنعش روحي ووجداني وتجعلني أحس بمعنى الوجود والناس.
قال صالح وقد خرج عن طوره:
– فارح هذا كلام لا يعقل. كيف تتصور هذا ؟ أنسييت ما وقع لك بسبب الخمر
والعياذ بالله. ثم كيف تفسر شربك للخمر على أنها ليست خمرا ؟
– أريد أن أقول إنني لا أحبها هي بالذات بل أحب تأثيرها وسريانها في
جسدي وروحي.

– هذا غير مقنع. أدعو الله أن يشفيك من هذا الداء العضال. يا فارح، أعطاك
الله كل ما تريد. الصحة والمال والشباب، فكيف لا تشكره على هذه النعم ؟.
– أنا ! إنني أشكر الله كل لحظة صباحا ومساء. لا تغرتك المظاهر. إنني

قريب من الله أكثر من كثير من البشر وهو يعلم ذلك.
قال مستغربا :

– كيف تكون قريبا من الله ورأيتك كريهة والخمر تعبت بك وتلهيك عن ذكره ؟
– أه. تحدثني عن الصلاة. كل شيء يأتي في أوانه. لا تعجل ؟ التوبة سوف تأتينا بإذن الله.

– اطلب العفو والمغفرة وعول على الله وطهر جسدك وثيابك.
– أشكرك وأطلب منك أن تدعولي دعوة صادقة حتى أتوب.
– يقول الله عليكم بالنية الصادقة والعمل وأنا كفيل بمساعدتكم. والتوبة يا أخي فارح ليست كلاما بل هي قول وعمل.
تدخل جابر :

– لا تنس أن الله يلهم العباد وينير طريقهم، ومن أراد الله به خيرا فإنه يأتيه لا محالة.

شعر فارح بقشعريرة خفيفة تسري في جسده وأجاب :
–إخواني، أعاننا الله على هذا الزمن الكلب. تعقدت الحياة. أه لو عشت في القرن الثاني أو الثالث.
قال صالح :

– المسألة ليست في القرون. حتى في القرنين الثاني والثالث كان هناك أناس كثيرون يشربون الخمر ويرتكبون المعاصي ويأكلون أموال الناس. وفي عصرنا الحاضر كثير من الناس يخافون الله بحق ويطبّقون شعائر الدين ويعيشون حياتهم باستقامة تامة.

– أنت محظوظ. لا تشرب الخمر ولا تدخن وتؤدي الصلاة في أوقاتها.
– أشكرك، لا لكن هذا من فضل الله. وفضله على الناس عظيم كما تعلم.

14

جلس غريب أمام الصحفي بعدما مشطوا شعره المنفوش وحسنوا هندامه ووضعوا الدهون والمساحيق على وجهه. سأله الصحفي بود :
 - أنت تقف أمام مشاهدي القناة الأولى بوصفك حائزاً على الجائزة الكبرى في المعارض التي نظمت قبل أسبوع في الدائرة السادسة. كيف تقدم نفسك بعجالة ؟

- مساء الخير. أنا غريب علي، رسام تونسي الجنسية مقيم بباريس منذ عشرين عاماً. درست الفلسفة وعلم النفس والمعلوماتية، ولي اهتمامات واسعة بالثقافة العربية الإسلامية والعالمية وعلم اللغات.
 - ما قصة النسر الملكي؟ هذه اللوحة التي نشاهدها الآن عبر شبكات الأنترنت وفي الصحف الفرنسية والمجلات. لقد سمعنا أنها ستباع بمئات آلاف الفرنكات.

ظهرت لوحة "النسر الملكي" تملأ الشاشة، وظهر النسر عالياً مطلقاً. صورة تلخص العالم. الكرة الأرضية، القمر والأفق البعيد يتراعى شفقياً.
 - لهذه اللوحة قصة طويلة، سأحكيها في كتاب عما قريب. أما الذي أوحى لي بها فهو السندباد، وهو الآن يقوم برحلة على خطى ابن بطوطة.

- ابن من ؟ من يكون هذا الشخص ؟
- ابن بطوطة أم السندباد ؟
- قالها بهدوء وبصوت خافت.
- يبدو الأمر في غاية التعقيد. هل رسمها معك ؟

- لا. لا. ليس الأمر كذلك.
- هل دفع لك ثمن الحاسوب الذي استعنت به في تصميمها ؟
- ولا هذا.
- هل يمثل مديرا لأعمالك ؟
- لو كان الأمر كذلك لكان حاضرا يوم العرض وطيلة أيام العرض.
- إذن هو محل ثقتك وتستشيريه كصديق ؟
- تقريبا. المهم أنتظر إشارته لأبيع اللوحة. أما اللوحات الأخرى فمعظمها قد تم بيعه.
- توالى الأسئلة والإجابات وفي كل مرة تظهر لوحة على الشاشة تملؤها ثم فجأة تكلم غريب :
- أشكرلكم هذه الدعوة اللطيفة وأعدكم بإصدار الكتاب قريبا وإن دعوتكموني فسأحكي لكم تفاصيل لوحة النسر وملابساتها.
- أكيد. طبعا أنت ضيف كريم وتستطيع العودة متى تشاء. فأنت رسّام فذ وقد أدخلت الفرحة والشعور بالبهجة في قلوب آلاف وملايين الناس وأعتقد أنك أصبحت نجما.
- وانتهت الحصّة بصورة النسر آتية من بعيد حتى ليكاد النسر يغادر الشاشة حراً طليقا. إبتسم غريب إبتسامة رضا وقال في نفسه :
- (سأعيش رغم الداء والأعداء كالنسر فوق القمة الشماء) وترحم على الشاعر الشهير أبي القاسم الشابي وفكر : لو قيض لي أن أعود فسأقف على قبره وأقرأ الفاتحة وأترحم عليه. كم أشتاق للوادي وللمكتبة بدار الشعب ولذلك المعهد الذي قضيت به أجمل سنوات عمري. لا أزال أذكر الأصدقاء والقيمين والأساندة ومقابلات كرة القدم أمام المعهد والرحلات الصغيرة في "بلاد الحضر" و"الشابية" و"رأس العين". أين الصيد، وباكير وحسين وفيصل وعثمان والهادي وحّم بكوش وشوشان وغيرهم !
- غادر دار التلفزيون فتلقفه بعض الصحفيين وأمطروه بوابل من الأسئلة وأخذوا له صورا شمسية ورقمية وهو لا يزال يعجب لهذا الطارئ الجديد في حياته وهذه الهالة التي أصبح يعيش فيها منذ أسبوع وفكر : لا بد أن أحصل

على موافقة السندباد وإلا نالني من الشقاء وسوء الحظ الكثير. وأنا لن أتحمل أكثر مما تحملت فكل شيء يأتي في حينه ولا بد من استثمار هذه الفرص حتى أخرج من عنق الزجاجة.

بينما كان يفتح المحل خطر له خاطر. (ماذا لو غادر النسر اللوحة وذهب بعيدا ينير طريق السندباد).

ابتسم وقال : لا. اللوحة في المعرض حتى بعد غد وهي محروسة ولا ينالها مكروه وهي أيضا مؤمنة بالآلاف الفرنكات.

أحضر قهوة كعادته وجلس أمام الحاسوب ورحل بعيدا وبيده الفأرة تسرح وتمرح وتنقله من عالم إلى آخر بلمح البرق فتح نافذة يطل منها على حصاد يومه فوجد مئات الرسائل المكتوبة آتية من أصقاع العالم. وظل يبحث عن خبر من السندباد فهو قبل رحيله قال له : اسمع يا غريب ببينا الانترنت، افتحه كل ليلة وستجد وصيتي واترك لي وصيتك ورسائلك فإنني واجدها في كل مكان أحل به.

ولما داعب النوم جفونه استلقى بين حاسوبين تاركا أحلاما لذيذة تحمله إلى حيث يشاء.

حلق النسر الملكي بجوانحه الكبيرة كروح خفيفة وجعل يخفق في الفضاء حرا طليقا. هاهي ذي قرية «دقاش» في الحقيقة تتراءى له وادعة بين النخيل والزيتون كانت الشوارع ممتدة خاوية وضوء القمر الخافت يمتد ويتمطى على الجدران وهبت نسمة باردة داعبت جفونه وخالطت فؤاده بشتى الأحاسيس الرقيقة.

15

جاء "فتحي الأحمر" في الموعد المحدد. جلس في زاوية من المقهى وأمارات الإنتظار على محياه. كان سارحا في بحر من التساؤلات ويتمنى ألا يخيب الشيخ عمر ظنه هو الذي سمع عن خوارقه وقدراته الريانية وجرب بعضها. بعد لأيٍ أطلت فريدة منصور بشوشة مستبشرة وسلمت على فتحي :

- أنت دائما في الموعد يا فتحي أشكرك على هذه العناية.

- العفو هذا واجب ان غايتي الآن هو أن تكوني موفورة الصحة وتتخلصي من هذه الكوايبس وتفتحي صفحة جديدة من حياتك.

- هيا نذهب إلى البيت فالشيخ أت عما قريب.

- أعلم ذلك فقد هتفت له وأعرف أن الموعد الخامسة عوضا عن السادسة. فتحت الباب ففاحت رائحة البخور تملأ المكان وجلس فتحي في قاعة الإستقبال الواسعة الأنيقة ثم ما لبث ان قال :

- أنت صاحبة ذوق رفيع و أنا أشعر بالراحة هنا.

- مرحبا بك. البيت بيتك يا فتحي.

شعر بارتياح يغمره ثم قطب حاجبيه الكثيفين وقال في نفسه : (فتحي أسمعني، عليك ان تكون حذرا، كفاك ما عشت من أهوال ومصائب فالحذر والشك واجبان حتى يثبت العكس) ثم رد وهو تائه النظرات :

- انا أعلم ذلك يا فريدة نحن أخوان.

ردت عليه بتلعثم :

- هو كذلك انا لا أنسى صنيعك معي. أه نسيت. ماذا تريد أن تشرب ؟

- كما ترين. لا اريد إزعاجك
- أبدا. إذن قهوة، كوكا أو عصير ليمون.
- وغابت لحظة ثم جاءت بطبق فيه ثمار وآخر به كأس من العصير :
- عصير الليمون أفضل. أشرب هنيئاً لك.
- طرق الباب فسارعت إليه فريدة وفتحت. جاءها الصوت قويا :
- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أنا الشيخ عمر.
- أهلا وسهلا. وبدت على وجهها أمارات الإنقباض.
- وقف فتحي فحياه طويلا وجلسا. قال فتحي :
- إنها فرصة جميلة ان نلتقي من جديد فمنذ مدة طويلة لم نتقابل
- كل شيء بحول الله يا أخي فتحي ثم أضاف : وكيف حال صالح ؟!
- إنه الآن بخير. وكل شيء على ما يرام.
- وأنت طمئني عليك.
- كل شيء في طريقه إلى التحسن
- ثم التفت إلى فريدة التي كانت جالسة دون حراك في شبه زهول :
- إذن هاهو الشيخ عمر.
- نظرت فريدة نحوه، كان ذا لحية طويلة كثة يخالطها بعض بياض، يضع علي رأسه لحفة بيضاء طويلة تنسدل على كتفيه العريضين، أفنى الأنف عريض الجبهة، أبيض البشرة ذا عينين صغيرتين سوداوتين ينطلق منهما بريق حاد.
- قالت :
- أيها الشيخ دخلت بيتي بالبركة.
- شكرا يا سيدتي وبارك الله فيك ثم أضاف :
- حدثني اخي العزيز فتحي عنك وطلب مني أن نتوكل على الله.
- زاغت عيناها ولم ترد.
- نهض فتحي واقفا، فمد الشيخ يده الغليظة نحوه وقال :
- إبق في مكانك انت كلك خير وبركة.
- ونظر نحو فريدة التي كانت ترتعش وترتعد خوفا وهو يتمتم بصوت غير مفهوم.

- فريدة اجلسي أمامي
 جلست كأنها تريد إغواءه فصاح صيحة مدوية ثم أخذ يتمتم وهو ينظر نحوها
 كانت فريدة صامته تنظر نحوه وفجأة بدأت تصرخ وتمزق صدارها :
 - لا اتركني وشأني لا أريد أن أراك.
 والشيخ يقرأ ويتمتم دون إنقطاع، فإذا بفريدة تتكلم بصوت رجل :
 - أنا بخير وبإمكانك الخروج من بيتي أخرج عني أخرج.
 والشيخ يقرأ ويتمتم. صاحت وقد أخذت علامات الفتور تظهر عليها:
 - لا حاجة لي بهذا. أنا شفيت... من أنت.. من أنت ؟
 والشيخ يقرأ ويتمتم وبدأ صوته المرعد يدمدم في فضاء القاعة :
 - اتعرف من أنا أيها الظالم العنيد ؟
 كانت فريدة ترتعش زائغة النظرات،
 والشيخ يقرأ ويتمتم ثم قال:
 - سأريك من أنا أيها العفريت، سأحرقك بالنار. صاحت فريدة بصوت ابح
 ثم بصوت خشن مريع:
 - لا. لا. نعم. نعم أعرفك أنا لم أفعل شيئاً.
 أجاب الشيخ :
 - تسلطت على هذه المخلوقة إياك والبهتان أيها الظالم. والله لو لم تمتثل
 لأحرقتك بنار لا قبل لك بها.
 كان جسدها يرتعش وتتصاعدت من فيها أصوات وحشرات
 - أتركوني وحدي لا أريد أن أراكم.
 والشيخ يقرأ ويتمتم :
 - أعرفت من أنا أيها العبد الحقير أيها الجني الماكر. كفاك كذبا وخداعا
 هيا قل من أنا ستعرفني يا كلب.
 وطفق يقرأ ويقراً وجسد فريدة يرتعش والزبد يخرج من فيها ويأتي صوت
 خشن :
 - نعم الآن عرفتك عرفتك أعاهدك أتركني وسأخرج منها. صاح فيه الشيخ :
 - يا ظالم كفاك خداعا هات يدك اليمنى عاهدني.

- أعاهدك. أعاهدك.
- مدت يدها اليسرى نحو الشيخ فدمدم وغضب وما لبث أن صفعها صفة قوية وراح يصفعها على وجهها صفعات متلاحقة والصوت المرعد يصيح كأن فاهها تحول إلى بوق كبير :
- كفى ايها الشيخ إنني أحترق.
- احترق احترق أيها العفريت. ماذا فعلت هذه المخلوقة حتى تسكنها وتفسد عليها حياتها !؟
- أجاب الصوت :
- أنا أحبها وأريد أن أتزوجها.
- انتفض فتحي في مكانه واتسعت حدقاته وقال في نفسه (كنت جالسا معها ومعه في قاعة الإنتظار، لا حول ولا قوة إلا بالله).
- وأجاب الشيخ :
- تحبها وتزوجها. ألم تكفك زوجتك حتى تتسلط على هذه المخلوقة الطيبة؟
- اخرج سأحرقك وستعرف من أنا.
- وارتعش الجسد وابيضت العينان وفريدة تستغيث، لا بصوتها العادي الرخيم بل بصوت خشن مرعد موحش :
- أعاهدك أعاهدك.
- ومدت يدها اليمنى نحوه فتناولها بلطف وقال :
- والله لو عدت إليها لحرقتك حتى ولو رحلت إلى الصين. ستعرف من أنا يا ظالم.
- وراح يقرأ ويتمتم والجسد عاد يهتز وفار تنور الغضب وتقدم الشيخ قليلا وفجأة صفعها صفة قوية حادة على وجنتها الأسيلة الناعمة وأعاد الكرة مرارا وهي تستغيث :
- سأخرج سأخرج.
- ولن تعود إليها مرة ثانية.
- لن أعود. لن أعود. أعاهدك مرة أخرى.
- لا يا كلب عاهدني مرة وهذا يكفي. ستعرف من أنا.

وواصل يقرأ ويتمتم وهي تستغيث.
سكت الشيخ وفقدت فريدة وعيها وظل فتحي فاغرا فاه فهو كان يسمع أخبار
الشيخ وقدراته ولكنه لم يشاهد أبداً مثل هذه الأشياء حتى عندما زار الشيخ
مرات في بيته ليكتب له رقية لإبعاد الأرواح الشريرة وأشباح الجان.
نظر الشيخ بعينه الصغيرتين نحو فتحي وقال :
- هات لي إناء كبير من الماء واسرع.
هرول فتحي وجاء بالماء. تناوله الشيخ وطلب منها وضع قدمها اليمنى فيه
وهو يقول :
- ستخرج من بين الظفر واللحم أيها الكلب العنيد.

أفاقت فريدة مبتسمة، هادئة. فركت عينيها وقالت بصوت رخيم :
- أيها الشيخ، أهلاً بك مرة أخرى.
ابتسم الشيخ :
- يا ابنتي لم نفعل سوى الواجب. هياً يجب أن تستريحي قليلاً الآن.
قال فتحي لفريدة وهو أمام الباب :
- الى اللقاء، سأهتف لك هذا المساء.

خرج الإثنان. واستلقت فريدة على فراشها خفيفة كالريشة، داعبتها
أحلام وأمال. أحست بدعة تخالط جسدها وروحها كأنها عادت الى فترة
صباها الأول وبدأت تتسائل عما قام به الشيخ لمساعدتها، قالت في نفسها :
«فتحي شاب لطيف وطيب أرجو أن أساعده كما ساعدني».

16

سار فتحي الأحمر والشيخ عمر جنباً الى جنب وفتحي الأحمر يتساءل
 عمّا قام به الشيخ ولا يجد الإجابة الشافية وفجأة جاءه الصوت :
 - فتحي. هذه البنت المسكينة كانت على حافة الهلاك ؟ من المفروض ألا
 أحدثك عنها لكنني أعدك صديقاً فنحن تعارفنا من زمان.
 ردّ فتحي :

- وهل شفيت الآن ؟!
 - بحول الله وحسن عونه. أتدري أنها كانت مسكونة، وان الجن الذي سكنها
 كافر.

اتسعت حدقتنا فتحي وقال مشدوها :
 - كافر. كيف سكنها ؟ وأي علاقة لها به وكيف التقت به ؟
 - أخي فتحي، قلّ أعوذ بالله من كل شيطان رجيم. إن الله خلق الإنسان
 والملائكة والجان والشياطين وهذا لا شك فيه. ثم إنه سبحانه وتعالى أمرنا
 ألاّ نقرب الجان كما أمر الجان أن لا يقرب الإنس فإذا حصل لقاء بيننا وبينهم
 تعمّ المصيبة. وبما أن الجن من نار فهو أقوى من عامة الناس إلا الذين لهم
 معرفة بهم ويحذقون هذا العلم.

ردّ فتحي :
 - وأنت يا شيخ عمر. اكيد أنّك من هؤلاء ؟!
 ابتسم قليلاً :
 - بحول الله. ان في القرآن اسراراً من اطلع عليها دانت له الجن والإنس

فالله فضلنا على العالمين ونحن نحمده ونتوب اليه. احيانا يتسلط الجن الكافر أو المسلم العاصي على البشر فيسكنهم وأحيانا يتزوج جن إنسية أو جنية تتزوج إنسياً فينصرف عن عائلته وشؤونها ويصبح في غيبوبة عن العالم الأرضي وأحيانا يفقد عقله.
قاطعہ فتحی :

- وفريدة؟! قل لي ما هي قصتها؟
- أراد أن يتزوجها غصبا ذلك الجن الأرقط ودخل جسدها منذ رحل عنها خطيبها ومنذ ذلك الوقت اختلى بها وملك عليها حياتها وهو بحول الله لن يعود فلقد احرقتة بالنار وهو لا يطيقها. وستعود فريدة إلى الحياة العادية راضية بما قسم الله لها.
- اخي الشيخ. ماذا يلزمك فريدة كلفتني بأن أسألك واعطيك ما تطلبه من مال؟
- لا. هذا لا يجوز لا نطلب جزاء ولا شكورا فهذا من فضل الله اعطاه لنا والمهم هو الشفاء.
- أكيد ولكنك تنقلت وأضعت وقتا وانفقت جهدا.
- الخليفة على الله. وانا اشتغل بفضل الله. المهم بلغ لها سلامي ان هتفت لها وقل لها عولي على الله وسترين فضله ورحمته. وقل لها ان تبتعد عن الخمر بأنواعها فهي أكبر الخبائث وحرام.
- قال فتحي في نفسه : (كيف افعل وانا اشرب الخمر كل يوم. سكتنتني الهواجس، المشاكل والمصائب والآن مهدد بالجان)، ثم بصوت عال:
- عافانا الله. وإياكم ادع لي دعوة سالحة يا شيخ.
- اللهم ابعد عنا الخبث والخبائث وطهر أجسادنا وقلوبنا واجعلنا من التوابين يا ارحم الراحمين.
- وصلا الى شارع بيار تامبو، فالتفت فتحى نحو الشيخ :
- هذا مطعم صديقي جابر ميمون. هل تريد الدخول معي لنسلم عليه ؟
- ليس هذه المرة، علي الذهاب إلى المسجد.
- إذن اتركك في رعاية الله، وسأعيد الإتصال بك قريبا

- لا تنس أن تطمئنني عليها، إلى اللقاء يا أخي فتحي.

طرق فتحي الباب ودخل فوجد جابر جالسا مع صالح.

سلم عليهما بحرارة فبادره جابر :

- أهلا. أطل علينا هلال العيد، ما الذي أتى بك في هذا الوقت ؟ عهدي بك لا تغادر المقهى في مثل هذه الساعة.

- صحيح. لكنني كنت مع الشيخ عمر.

قال صالح :

- اين ومتى ؟ اين الشيخ، انا ابحت عنه وهتفت له مرارا، فلم يردّ !؟

- هو بخير.

- وموعد الزواج ألم تقل لي المرة الأخرى انك تحضر المراسم وستحدد الموعد قريبا.

- كل شيء بإذن الله، حقيقة كانت تلك المرأة متفهمة وجميلة ومن عائلة طيبة لكن الظروف صعبة.

- اي ظروف ؟ ستتزوج بها ام لا ؟ ليس الأمر بهذه الصعوبة التي نتصورها.

- صعوبة. مالك تهذي يا أخي صالح. أبوها.

ثم تنهد طويلا وأضاف :

- هي فتاة طيعة وهي وحيدة ابويها، وتشتغل في صيدلية منذ تخرجها من الجامعة قبل ثلاث سنين. واكتشفت أن اباه لا يرغب ان تتزوج.

دهش صالح وانفجر جابر ميمون ضاحكا:

- انت يا فتحي ابو المشاكل قد تصلح عطب السيارات الميؤوس منها ولكنك لا تقدر على إصلاح عطبك.

- ربّما. الحقيقة أن أباه يتعلل بضيق الوقت ويقول إن للزواج شروطا.

- وما هي الشروط ؟ قال صالح :

- سألتها عنها فقال لي ان كل شيء يأتي في أوانه، اما ابنته اي خطيبتى فقد سألتها وفهمت من كلامها ان اباه هو الذي يقرر موعد الزواج وكيفيته.

صاح جابر :

- وأمّها. عادة الأم هي التي تحدّد هذه الأمور.
- لا ليس هذه المرة، أن والدها المحترم بصدد بناء بيت كبير وهذا يتطلب مالا كثيرا.
- قال صالح :
- وما علاقة البيت بزواجك !؟
- الأمر بسيط، اي اصبح بسيطا بعدما فهمت.
- المهم، قال جابر، انا مطعمي مفتوح كما قلت لك سابقا. وان دعوت اصدقاءك فسأساعدك واحضر لك الذ الأطباق وأخدمك احسن خدمة.
- قال فتحي مبتسما :
- خطيبتني تشتغل كثيرا وفي كل اول شهر تسلّم لوالدها مرتّبها كلّهُ وهو بعد ذلك يعطيها بعض المئات من الفرنكات مطلع كل اسبوع. وهو يبني ويسافر ويقتني أفخر السيارات.
- صعد الدم الى وجه جابر:
- انن فهو لن يتركها تتزوج طالما هي البقرة الحلوب ومصدر بذخه ورفاهيته، ياله من أب. إنه أب محتال.
- قال صالح :
- وما الحلّ إذن !؟ لا ننسى ان رضا الوالدين شرط أساسي
- انفجر جابر:
- اي شرط ! شرط زواج ام حرمان فليترك البنت تتزوج. والتفتت الى فتحي:
- وكم عمرها هذه المخلوقة ؟
- ثلاثون سنة.
- دهش جابر:
- ثلاثون سنة. إنها عجوز في الغابرين، ماذا تنتظر، اسمع يا فتحي. طالما لم تتزوج حتّى هذه السن فالأمر ميؤوس منه، إنس الموضوع.
- كيف أنساه وهي تعدني كل شهر بقرب الإنفراج
- اي انفراج، انت جاهل بالنساء ام غبي !؟
- والله لم اعد ادري.

قطع صالح الحديث :

- لا يا جابر. هذا ليس حلاً. كل شيء بقدره الله عزّ وجلّ.

- صحيح، لكن ان لم يتزوج فتحي فالسبب هو انت.

قال فتحي :

لم اعد اميز بين الخطأ والصواب بين الواقع والخيال، لقد احببت هذه المرأة
فماذا افعل ؟

ردّ جابر :

-دع عنك الحبّ الفارغ، هذا مشروع ميؤوس منه، انها ليست مسؤولة
ولا إرادة لها اليوم فماذا تنتظر من إنسانة محكوم فيها غدا ؟! اتريد ان
تضيع عمرك في الأوهام ابحث عن امرأة أخرى وتزوج.

قال صالح :

- كيف يتزوج من أخرى وهو يحبها وينتظرها منذ سنوات انها ليست سلعة
واي امرأة أخرى لا تعوض هذه.

صعق فتحي و شلت حركته وامتعق لونه و خارت قواه وقال بصوت واه :

- دعا الأمر يسترح وسيقضي الله أمرا كان مفعولاً.

17

انتبهت «ألبان» كأنها أفاقت من غفوة مفاجئة. كانت سارحة مع حكاية السندباد وهو يقص ويتأوه وقالت في نفسها:
 (سعيدة هذه «الألبان» التي احبت بصدق وعمق وهذا الشخص قد يكون جديرا بالحب. انه يتألم حتى الآن، حتى وقد اصبحت حياته قصة تروى، ويرويها هو بالذات) ثم نظرت في عينيه وقالت :
 - انها قصة رائعة، يالها من مصادفات مذهلة. علي الآن ان اذهب فالوقت يضيق.

- نعم اذهبي إلى حيث تشائين يا ألبان
 - وولنتقي في اليوم التاسع من هذا الشهر في غرناطة بمقهى «المورسيك».
 - اتفقنا.

سلمت عليه فغزاه عطر هو عطرها ولم تكذ تصعد الى سيارتها حتى كانت الدموع تترقرق في عينيه.

وابتسم وهو يقول في نفسه : (عليك برباطة الجأش يا أخي السندباد) ونهض متثاقلا وهو يزداد عجبا على عجب فأدار محرك السيارة وانطلق الى بلاد يعشقها ولا يطيق عنها صبورا.

مالت الشمس الى المغيب وقطع السندباد مئات الأميال، ذهب بفكره الى باريس، الى «غريب» وود لو كان حاضرا يوم افتتاح المعرض لكن الأمر كان مستحيلا. فلا رحلته كانت تتحمل الإرجاء ولا إقامة المعرض تتحمل ذلك والنسر الملكي هو الرابط بين الحداثين وهو الوحيد الحاضر دوما هنا وهناك.

بعد مرحلة الأندلس سيدخل المغرب ثم الصحراء وموريطانيا ثم السنغال ثم ساحل العاج والنيجر وجنوب الجزائر ثم مالي والتشاد ونيجيريا ومنها إلى إفريقيا الوسطى حتى رأس الرجاء الصالح ومنها يعبر القارة الإفريقية نحو الجزر قبل ان يعود إلى القرن الإفريقي ويواصل حتى ميناء عدن لدخول الجزيرة العربية.

هذه هي المرحلة الأولى، اما المرحلة الثانية فتبدأ في مصر وما تبقى من فلسطين إن استطاع والأردن وسوريا ثم العراق وبلاد فارس ثم الباكستان والهند والصين حتى بلاد المغول ومشارف الشيشان وبعدها يتوغل في أوروبا ويدخل البحر المتوسط عبر تركيا واليونان وجزيرة كريت. وسيزور جزراً عديدة ويقيم بجزر المالديف كما اقام بها ابن بطوطة. لن يكون قاضيا فيها ولن يستقبله السلطان ولا الأمير، سيمر مرور الكرام ويكتفي باقتفاء الآثار. فكر لحظة كعادته : (لماذا اقوم برحلة مضية مثل هذه؟! ماذا ساحصد منها، أه انني مأمور فالنسر ورأئي والعدو أمامي. وعليّ القيام بما طلب مني دون تراجع أو نقاش).

اووقف سيارته امام مطعم صغير ودخل مبتسما :
- مساء الخير.

رد عليه رجل بدين اشقر :

- مساء الخير يا صديقي ماذا استطيع ان اهب لك ؟
اجاب بفرنسية واضحة لا غبار عليها :

- اريد ان اتعشى

-حسنا ساحضر لك طبقا شهيا

جلس من الناحية اليمنى واشعل لفافة وراح يفكر ومن حين لآخر يتكلم مع الأشقر. ولما بدأ الأكل جلس الأشقر غير بعيد وهو يقول :

- هذا اليوم يوم عظيم.

- كيف. هو يوم عيد من الاعياد الوطنية ؟

- لا. دعك من الأعياد الوطنية. انا لم اعد أو من بهذه الضحالات. كلها اعياد وطنية وسرقات وطنية وأحزاب وطنية.

- ماذا اذن قل لي. ما في الأمر ؟
- يا صديقي أنا جذلان وفرح وسأطير من فرحي.
- ما القصة ؟! هيا لا تقطع علي أنفاسي
- في الحقيقة منذ الصباح، فتحت المطعم وانا احس بأنني سأقضي يوما جميلا.
- هذا ممكن. يعني مند البداية انت ايجابي وسعيد!
- لم أكن هكذا. هذه اول مرة منذ وفاة زوجتي السنة الماضية أظفر بهذا الإحساس.
- اذن. سيكون هذا اليوم، الإنطلاق نحو مرحلة جديدة !
- ربما. لكن الأمر مختلف.
- أنا لا افهم، احك لي القصة اذن ؟!
- هذا المساء، اي قبل ساعتين من قدومك وقفت سيارة امام المطعم ونزلت منها امرأة دخلت وسلمت وجلست وما اقتربت منها حتى كدت اطيير فرحا.
- كيف لا ؟!
- ثم هبّ واقفا وهو يقول :
- أه نسيت انك جائع. سأتركك تنهي طعامك ؟ رد عليه السندباد حائرا :
- ألم تعدني بفاكهة شهية. ثم «كيف لا» ؟ ما محلها هنا. ! هيا اكمل قصتك.
- قلت اذن كيف لا. وهذه المرأة هي مثلي الأعلى في النساء إنها «ألبان» وما ادراك ما «ألبان». لم اتصور يوما أن اراها رؤيئة العين وأتحدث معها وهي التي يود كل الإسبانيين اللقاء بها والحديث معها. إنها ساحرة الأندلس وشاغلة الناس.
- كيف ذلك. من عساها تكون هذه المرأة ؟
- أولا هي ممثلة بارعة في المسرح والسنما وقد حازت على لقب افضل ممثلة مرتين على التوالي. وهي صحفية ممتازة وتتنقن أكثر من عشر لغات.
- ثم وهذا الأهم في نظري هي وريثة ملوك بني الأحمر الذين حكموا الأندلس وبما أنني من اصل عربي فهي بالنسبة لي رمز كبير وإعتراز. لقد كانت لطيفة معي وتحادثنا معا بكل حرية. فكيف لا اكون سعيدا اذن بلقاء هذه المرأة

التي اعطاها الله كل شيء الجمال والجاه والمال والشهرة والنبيل. انها ثروة وطنية بحق. هذه الفتاة من أثرياء البلاد. ومع ذلك اكثر تواضعا من اي احد وهي لذلك محل الإعجاب ويحبها اغلب الناس خاصة الفقراء وضعاف الحال الذين تساعدهم عبر جمعيتها «النجاح للجميع»

- الآن فهمت كل شيء

- أرايت ! انها انسانة ودودة سرعان ما تسكن القلب وتداخل الوجدان.

- لكن كيف تسافر وحدها وفي عز الظهيرة. الا تخاف على نفسها !؟

- آه. لقد اشتهرت هذه المرأة برحلاتها وأسفارها وتكلمت مرارا عن رحلاتها في التلفزيون وهي ذات خبرة كبيرة في الفنون الحربية حتى ان الملك «خوان كارلوس» وهو عارف برياضة الكاراتيه قال مرة : «على كل الإسبانيات ان ينسجن على منوال «ألبان»».

- إعتبر أنني لم أقل شيئا.

كان يفكر في كل ما قاله صاحب المطعم. يفكر في انتمائه لهذا الأشقر الضخم وهذه الفاتنة الساحرة وفي المصادفات الغريبة التي بدأت تظهر وهو ما يزال في بداية الطريق.

كان السندباد يأكل سارح الخيال وما كاد ينهي عشاءه حتى بادره الأشقر :

- آه نسيت. وقد قالت لي «ألبان» انها التقت منذ قليل بالسندباد. لقد كانت سعيدة وهي تحكي عنه.

- وماذا قالت عنه !؟

- قالت إنه رائع في طريقة تفكيره وقصصه وتفكر في إعداد حلقات عن حياته لتقدمها في التلفزيون، لا تنس انها هي ايضا رحالة كعمتها «ألبان غنزاليس».

- اشكرك كثيرا ان الحديث معك متعة لا تضاهى وإن عدت من هذا الطريق فسأتوقف قليلا عندك وأروي لك بعض القصص المستلهمة من رحلات السندباد.

ردّ عليه بلهفة :

- أتعرفه. هذا السندباد !؟

- إني احاول التعرف عليه وابحث عنه في كل مكان
- أه. ومع هذا فأنت لم تكن بعيدا عنه «ألبان» قالت لي انها لاقتة في مكان
يبعد مائتي كيلومترا من هنا. لذلك لا تيأس. لا تيأس.

18

جلس جابر ميمون يمسح العرق المتصبب من جبينه. ضاقت به الدنيا علي رحبها وتمنى لو يرحل كما رحل السندباد إلى بلاد بعيدة لا يعرفه فيها أحد. وود لو يتلاشى في الفضاء او يذوب كحبة الملح بلمحة عين. وصاح كالمعتوه : «لعن الله هذا العالم. هذا عالم الخديعة والرياء وطغيان النساء». لم يعد هناك رجال على وجه الأرض أصبحنا نقاد كالكلاب وننبح مثلها. تمنيت لو عشت في العصور الغابرة. حتى الحرب لم تعد قوة وبأسا وشجاعة. أصبح المخنثون أسياد العالم. أين البأس والحنكة والجرأة؟! كل شيء أصبح مقننا مسطرا وجاهزا. اطباق جاهزة، ملابس جاهزة، حروب جاهزة، حب جاهز، سرقة جاهزة، موت جاهز، ولكن حرفائي الكلاب أين هم؟ رحلوا. هكذا باريس في الصيف يهرب منها أهلها ويملؤها السياح لكن ليس في كل الأنحاء. هذا المطعم مطعمي ولكنني لم أفهم كيف استغلته. حاولت كل الوسائل وجريت كل الطرق واحضرت كل الأطباق حتى البيتزا الإيطالية. لم يبق إلا الطبخ الصيني لم أجريه. وفي كل مرة اشتغل أياما ثم ينقص عدد الرواد ويصل درجة الصفر. كأنني اسبح في الماء البارد بعدما يتصبب مني العرق. ما هذه الحياة؟ اقامت الدنيا واقعدتها. وابتعدت عن طريق «فارح» صديق العمر حتى اتجنب الخمر وبيعها وقررت العزم على الإبتعاد عنها وبدأت اصلي واتوسل إلى الله ان يساعدي ويجنبني الغواية. ولكن لسوء حظي عدت إلى عادتي القديمة. الشيطان يقول لي دائما بأنني لن اهنأ في هذا المطعم. ويزين لي العودة إلى بيع الخمر لضمان بعض الزبائن. يا للتعاسة انا

اكاد أصاب بلوثة جنون. وزيادة على ذلك فأنا أعرف بأن هذا المطعم مسكون. وأهله لا يحبون الخمر. مرة كنت نائما في الغرفة العلوية وجاءوني في المنام وطلبوا مني أن أسقيهم شايًا أخضر فامتنعت ولم استجب كانوا كالزئوج طويلي القامة ويلبسون ثيابا بيضاء نقية وتبدو عليهم علامات التقوى والاستقامة لكنني ركبت رأسي ولم أستجب لهم. علي تغيير المقام والإبتعاد عن كل الناس الذين أعرفهم. هل كتب عليّ ان أعرف حقّاش الليل وصديقه وعبد العالي الأنور ذلك المتهور الصعلوك وابن شعبان السكير، صحيح من بين هؤلاء افضل صالحا وهدوءه والعقيد وحكاياته الغريبة حتى وإن كان مدلا كثيرا اللبات : (هات لي كأس شاي صغيرا. لا هذا كبير غير لي الكأس. هات شربة ماء. هذا حار. هات الماء البارد. قرب مني المنفضة. هدي من صوت الراديو. أغلق جهاز التبريد. افتح الباب قليلا. تعلموا الإنصات عندما أتكلّم. هيا إجلس قبالي). ومع ذلك فهو مثقف وكلامه مهم، انه حقبة تاريخية جمعت في شخص من لحم ودم.

أما جمال فقد أصبح مزعجا في الفترة الأخيرة. ان صوته يزعجني وربما قد يقتلني لو جلست بجانبه صوت يلعلع في فضاء المطعم. لا يتناسب مع قصر قامته ولحيته الوقور التي غزاها الشيب، ثم هو لا يطلب إلا كأسا من الشاي وفي آخر لحظة يقوم ويتثنى ويتأعب ويلبس بدلته العتيقة ثم يصيح : (كم نعطيك يا جابر؟! وهذا ما يزعجني ويجعلني أغضب لكنه ضيف لا أريد ايداءه. عليه أن يعرف أن الزمن تغير، أولا هو لا يتصدق عليّ فمن حقي أن أقبض ثمن الشاي أو أي مشروب آخر، ثانيا الشح لا ينفع فالذي يريد الثراء عليه العمل كثيرا أو تعاطي التجارة والسمسرة. انتهى عهد تكوين الثروات من عرق الجبين. سنوات عديدة لم ار مرة واحدة "جمالا" يدفع عصيرا او طبقا لفائدة صديق له أو مرافق. صالح مثلا أراه مرات عديدة يدفع وحده ثمن كل ما شربه الأصدقاء بصدر رحب كأنه شرب كأس ماء بارد، اما جمال فعكسه مرة اخرج لي من جيوبه وابلا من السننيمات التي ملأت كفي وتناثر بعضها على الأرض يريد التخلص منها كما قال. وهذا منتهى الإستخفاف. المفروض أن الإنسان يقترب من الحكمة كلما تقدّم به السن. لكن جمال هذا فيما يتعلق بالمادة والمال على عكسهم يزداد شحا. العفو. ماذا يهمني ؟

ان هذا استطراد سخيف فالعفو. انا اتكلم مع نفسي. ولذلك فساترك هذا الأمر سرّاً بيني وبين نفسي فلو حدثت به "جمالا" ربما يغضب او يحمل عني فكرة خاطئة. المهم المطعم ومشاكله وعلي الوصول إلى الحل. الحل كما يقول صاحبنا قريب لكن علينا العودة إلى أنفسنا لنجده. وانا الآن بعيد عن نفسي وسأعود لبيع الخمر في هذا المطعم. انه لعنتي ومبرر وجودي أو هكذا يخيل إلي. حينما افتحه اشعر بأنني صاحب مطعم بباريس حر مستقل في اختياراتي و طبخ الأطباق ووضع الطاولة والكراسي. وعندما أسكر انقم عليه وعلى الناس كما هو الحال في هذه اللحظة. قد أجاأ الى الشيخ الذي حكى لي عنه فتحي الأحمر، وخاصة وأن العقيد يعرفه ويقول انه على قدر من العلم بالروحانيات وإنه قادر على ايجاد حل سريع لإبعاد شبح الكساد عني وعن مطعمي، لكن قال العقيد بأن مفتاح الحل يبدأ بالإقلاع عن تناول الخمر والإبتعاد عنها طيلة أربعين يوما وبعد ذلك عدم العودة إلى تناولها إطلاقا. فكيف اوفق بين زبائن لا يستيغون «الكسكسي» إلا باحتساء النبيذ وكلما احضرت لهم النبيذ لا يأتون. هذا المطعم يسكنه الجان ولا فائدة ترجى منه والآن قسمته نصفين نصف لقاعة الشاي والنارجيلة ونصف للأطباق والخمور.

أصبح نصفين حرام وحلال وأنا بينهما تائه حائر. لعلي أجسد الخير والشر كما قال العقيد مرة. هو على الأقل ربح راحة البال. والنتيجة واحدة ومنذ سنين عديدة اعرفه كما هو هادئ الطبع نظيف وحاد الذاكرة اما أنا فبدأت انسى حتى اسماء بعض الأصدقاء. هل انا شرير إلى هذا الحد أو عابث أو غير مكترث؟! لا اظن هذا صحيحا فأنا جواد كريم وضحوك وأستمع للناس واساعدهم لكنني لا اساعد نفسي وابحث عن طريق سهل لأجمع من المال ما يكفي لبناء منزل فخم وضممان مبلغ يقيني غائلة الزمان. هكذا كان جابر ميمون يحدث نفسه وعيانه تائهتان تتابعان احيانا بعض المارة.

ولما اطل العقيد بقامته الفارعة انقشعت سحابة اليأس وابتسم جابر ابتسامة عريضة كمن يهون على نفسه كارثة واقعة لا محالة. كان العقيد يحمل محفظة

كبيرة وبطنه امامه، واتخذ مكانا له مثبتا نظاراته العريضة على عينيه ماسحا
جبته وصلعته بيده. نظر باتجاه جابر :

- كأس ماء من فضلك.

- خذ هذا الماء جاهز. أتريد كذلك كأسا من الشاي ؟

- كما تريد. لا ليس الآن.

جاء صالح يمشي بهدوء المعتاد وعيناه الصغيرتان تتفحصان المطعم
وجلس المنجي القابسي ضخم الرأس كبير الأنف وطفق يحكي عن مغامراته
التجارية وصفقاته الإفريقية وعلاقاته بكبار التجار والأعمال وكان العقيد
ينصت بإهتمام كبير ويلقي الأسئلة تلو الأخرى متعطشا للمزيد من
المعلومات والتفاصيل. وجاءت زبونة ترافق زوجها فتوجس صالح خيفة وقال
هامسا :

- تكلموا بصوت خافت هنا دخلاء بيننا.

أجابه جابر :

- عمادا تحكي. انت تهذي

- كيف ذلك الا ترى بأن هذه المرأة تصغي لما نقول ؟!

- لكن ما فائدتها في هذا ؟!

- انت تتصور ما بدأ لك. الا تعرف يا جابر بأن الصهاينة يراقبون كل شيء
ولا يجب ان يفوتهم امر عظيم كان او حقيرا ان عيونهم في كل مكان ولا
تغرك المظاهر كن حذرا ولا تحك امام الناس الذين لا تعرفهم.

- لك الحق لكن ليس لدي ما أخفيه.

اجابه صالح :

- حتى هذا الأمر، عليك إخفاؤه اقصد اذا لم يكن لديك ما تخفيه فاحف هذا
عن الآخرين.

- انت تعقد حياتي على ما فيها من تعقيد

انبرى العقيد شبه ميتسم :

- صالح لا يقول أي كلام، وهو يقول الصواب.

رد جابر :

كيف ذلك !؟

غضب العقيد وعلا صوته :

- اسمع. جابر ميمون انت لا تفقه هذه الأمور ولذلك فمن الأجدر ألا تحكي فيها.

قاطع المنجي :

- أستاذ مصطفى لكن ربّما هو يريد فهم ما غمض منها.

شعر بالرضى وخالطه احساس لذيذ بهذا الإعراف :

- العفو يا أخي، هو تاجر. اليس كذلك يا جابر !؟ ولذلك فاترك هذه الأمور ولا تخض فيها فانت لا تفهمها.

ومسح شاربه الصغير ثم اردف :

- انا مثلا افهم هذه الأشياء وأعرف دقائقها واسبابها ومسبباتها. السياسة علم من العلوم الدقيقة ولها معاهدها واساتذتها ومبرزوها. ومعظم بلداننا العربية ليست مؤهلة حاليا لكسب هذه المعارك الحادة انا مثلا قادر على تكوين اطارات امنية وسياسية بحكم خبرتي الطويلة وتخصصي في هذه العلوم السياسية والعلاقات الدولية وخضت مناقشات ومساجلات كبيرة مع اكبر المتخصصين في العالم.

ونظر نحو جابر ثم قال فجأة :

- اتعرف كم عدد غرف بيت جمال عبد الناصر وعدد الكراسي التي به !؟
ذهل جابر لهذا السؤال المباغت ثم انفجر ضاحكا وهو يتساءل عن علاقة السؤال بما كانوا فيه.

واصل العقيد :

- في بيت عبد الناصر ستة كراس وهو من طابقين

حدق صالح فيه وقال :

- اتقول هذا ارضاء لصديقك وتعبيرا له عن تعاطفك او تقول لنا ما يعن في خاطرك بمحض الصدفة. ما علاقة هذا بذاك ؟

- اردت فقط ان اقول لجابر بأن معرفة الأشياء الصغيرة جزء من اهتمامات العارفين بالأمور وان الذاكرة هامة جداً في هذا المجال. مثلا أنكر انني

تدخلت في حصة اذاعية عربية عبر الهاتف وبقيت ساعتين في سجال مع المذيع حول قضايا تهم العالم العربي والصراعات الدولية والتحديات وانهال بعد ذلك وابل من المهاتفات تسأل عني ومن أين انا وماذا اشتغل. ومسحت الأرض بالمذيع.

قال جابر :

– ان كنت ذا نشاط كبير في تلك السنوات !

انفجر قائلاً :

– وحتى الآن. يجب أن تفرق بين العلاقات الخاصة وبين العلاقات العامة. لا تحكم علي من خلال لقاءاتنا في المطعم مثلاً فأنا انسان مهم ومن الخاصة. بعض الشعوب العربية تافهة وعلينا الإبتعاد عن العاطفة في التعامل معها ولو كنت ذا نفوذ لأبدت الكثير منهم دون شفقة او رحمة. لا مجال للعاطفة في مثل هذه الأمور. اذا بقينا عاطفيين سنذوب بعد عدة عقود وتلاشي، انا أو من بسياسة الحديد والنار وهكذا تخلق الشعوب القوية ذات الشأن. لكن من سوء الحظ، سني لم يعد يسمح لي بتعاطي السياسة والخوض في غمارها.

قال صالح :

– اليهود ! اليهود الصهيونيون يكيدون لنا وهم لن يتركونا بخير. وعلينا التصدي لهم ورميهم في البحر.

قاطعه العقيد :

– يا اخي انتم وغيركم لم تفهموا العبارة (أن تلقوا اليهود في البحر) لا يعني اننا نبيدهم ونغرقهم بل ابعادهم ليعودوا عبر البحر الى البلاد التي جاؤوا منها انتم العرب تفهمون خطأ ولا تعرفون اللغة العربية.

رد جابر ميمون :

– سنترك العلم لك أنت. يكفي ما عرفنا لنعيش.

– اتسمي هذه حياة. الموت اهون من حياة ذليلة. أه انا انتظر الفرصة لأقضي على هؤلاء. شعوبنا غمرتها الحقارة ويجب تنظيفها وابداء الكثير لفائدة الباقين.

قال صالح :

- كفاك تناقضات قبل قليل كنت تقول بأن سنك لم «يعد» يسمح لك بتعاطي العمل السياسي والآن تقول بأنك تنتظر الفرصة؟! ما هذا أيها العقيد؟! انبرى الشاب النادل :
- هل انت عقيد بحق يا اخي مصطفى؟!
– لا. لا. هذه كنية.
- وما معنى كنية؟
- يعني كاللقب العائلي لكنها لا توجد بالضرورة في الأوراق الرسمية مع انها احيانا تطفى على الإسم الحقيقي أي اللقب الحقيقي وفي هذا المجال هي اسم الشهرة.
- انا لم افهم شيئاً. ليس هذا مهما طالما ان اسمك الحقيقي هو العقيد. انفجر ضاحكا وقال :
- دواؤها كأس شاي. هات لي كأس شاي وخفض من صوت ام كلثوم واغلق الباب وهات المنفضة واجلس بعد ذلك ولا تتكلم. ألم تسمع بما قال الشاعر العربي؟
- ماذا قال؟! اجابه جابر ضاحكا.
- اعطاك الله اذنين ونطقا واحدا من اجل ان تنصت وتسمع اكثر مما تتكلم. اذن فاستمع إلي ولا تقاطعني ولا تضحك ولا تتحرك فإذا تكلم العلماء سكت طلاب العلم.

19

افاق غريب موفور النشاط هذا الصباح. وفتح الحاسوب فإذا به يكاد يطير من الفرحة وهو يشاهد الرسالة التي بعثها إليه السندباد : «عزيزي غريب، اكتب اليك من غرناطة الحبيبة.. انا الآن مقيم بها لعدة ايام. وصلني خطابك واعطيت الرد والنسر الملكي موافق فلا تؤجل الأمر. سأحكي لك حياتي الجديدة وقصة لقائي بألبان مالكة الفؤاد والوجدان. تحياتي».

خرج غريب خفيفا نشطا والتقى بمتعهد قاعة العرض وطلب منه تنظيم لقاء بممثل الشركة «ب. س. م» ثم هتف للأسعد في شأن خاص.

وبعد ايام وقف غريب امام الشركة العقارية ليمضي عقد ايجار قاعة العرض الكبيرة التي سيفتحها في ارقى وأعرق احياء باريس. اما لوحة النسر الملكي فقد اشترتها شركة يابانية ويحق لشركة «النسر» تسويق نظائر عن اللوحة بحجمها الأصلي وعبر بطاقات بريدية واستخدامها في الألبسة والتجهيزات الرياضية وغيرها وباقي اللوحات الأخرى اقتنت بعضها وزارة الثقافة والبعض الآخر شركة كويتية. خاصة لوحة «دقش في اللحم» التي فاق ثمنها الملايين.

اصبح الأسعد وصاحبه «العصفور» شريكين في قاعة العرض ودأب كل منهما على احضار مستلزمات القاعة وتجهيزاتها وطبع البطاقات والدعوات والإتصال بالشركات والجمعيات وأصحاب المصانع والمشاريع فالوقت يمر وعليهما فتح

القاعة في اقرب الأجال لأن كثيرا من المهتمين ينتظرون وغريب منهمك في عمله بين الحاسوبين ليلا ونهارا حتى انه يشتغل عليهما معا في آن واحد. غريب رغم ملايين الفرنكات التي اودعت في حسابه وحساب الشركة لم يغير شيئا من عاداته. الأمر الوحيد الذي تغير هو البدلة التي اشتراها له الأسعد يوم تدشين العرض والتي ظهر بها على الشاشة مرتين.

كانت الرسائل تصل عبر الإنترنت في الموقع الذي فتحه والمسمى «النسر الملكي» وحتى السندباد اصبح يرسل توصياته وسلامه إليه عبر الموقع هذا. وصلته آلاف الرسائل وكان لا بد له من تخصيص مكتب يسهر على اختيار الرسائل والإجابة ولهذا الغرض طلب الأسعد من مصلحة التشغيل المسماة «أ. ن. ب. إ» ان تمده بقائمة من الشبان والشبات الذين يريدون العمل معهم في القاعة ولم يمض اسبوع واحد حتى انضم إلى الفريق «فريدريك» الوسيم لاستقبال رواد العرض وإرشادهم وإعطائهم كل التفاصيل عن اللوحات وتاريخ انجازها وأثمانها وظروف عرضها وملابساتها. «مالك» الجزائري الأصل وهو محتسب قدير لا يعقد البيع دونه فهو الذي يسجل اللوحة في دفاتره ويقبض الصكوك ويودعها مكانا آمنا بعد ان يمضي الأسعد ويوافق عليها. «كاترين» ترد على الهاتف وتقضي كامل اليوم في الإتصالات والرد على المطالب المتعددة والبحث عن دور وقاعات أخرى للعرض في كل اصقاع العالم «المتحضر». «كريستوف» يحدب على اللوحات في المخازن ويقوم بتصنيفها وتنظيفها وترصيفها وتقويمها او ترميمها اذا اقتضى الأمر ثم عرضها وتثبيتها ومسحها وتغليفها إذا ما تم بيعها أو تقرّر عرضها في مكان آخر.

«موك» او مختار وهو العاشق للفن وأهله والرسام هو ايضا الذي لم يحالفه الحظ حتى الآن لعرض أي من لوحاته، يقضي يومه كله في تنظيف اللوحات واحضار الإطارات وتلميعها وتذهيبها ووضع المواد اللامعة عليها فإذا ما اتم ذلك بدأ في نفض الغبار عن مئات اللوحات الوافدة يوميا لأجل عرضها في وقت لاحق. «سالي» أو سليمة تجلس طيلة اليوم امام حاسوبها وبيدها الهاتف المحمول لا يفارقها فهي المستكثبة والإدارية وهي التي تنظم مواعيد «غريب» وتنقلاته وظهوره في القاعة ولقاءه ببعض الزبائن المهمين وهي على

صلة دائمة بالأسعد والعصفور كلما كانت هناك صفقة هامة لبيع لوحة او إحضار عرض من العروض أو لقاء برسام موهوب أو شهير يطمح إلى عرض لوحاته في قاعتهم التي اصبحت في وقت قياسي مرجعا لا غنى عنه لمن يرغب في الشهرة والمال.

أما «تسوك» الإفريقي الأصل و«تران» الصيني و«خالد» الذي يتقن خمس لغات و«كارتن» السويدية فيقضون كامل اليوم وطيلة الأسبوع في الرد على الرسائل عبر الأنترنت وكلهم بهجة وأمل ولا يملون العمل خاصة وان أجورهم منذ الشهر الثالث فاقت كل طموحاتهم ونتيجة اتصالاتهم وبحوثهم درت على القاعة ملايين الفرنكات.

ولم تمض شهور ستة حتى كانت قاعة «النسر الملكي» خلية نحل كل عناصرها يعملون في حركة دائبة واستبشار دائم يكتمل احيانا بطول «غريب» يلبس بدلته المعتادة ويفتر عن ضحكة ودودة. أليس هو الأصل ومفجر هذه التجربة الرائدة وسبب فرحة هؤلاء الشبان والشابات الذين بحثوا كثيرا عن عمل بسيط يكفيهم ومؤنتهم ويطفئ غضب ذويهم وتوجس من يدهم بمئات الفرنكات ينفقونها لشراء بطاقات النقل وطوابع البريد وبطاقات الهاتف في بحث مستميت عن عمل ليوم أو لأيام!؟

مرت شهور وتعاقبت أحداث وانقطعت اخبار السندباد منذ ستة شهور وحرار في امره غريب وخالط نفسه بعض الخوف على مصير صديقه وملهمه السندباد. فكر مرة قائلا :

«هكذا لا تكتمل الفرحة ابدا ! جاء الفرج وذهب السندباد فماذا تخبئ الأيام يا ترى»!؟ وفي اليوم الخامس من رأس السنة صدرت صورة غريب واقفا يحمل لوحة صغيرة ويرتدي بدلته المفضلة ويبتسم على غلاف مجلة «كاييتال» الصقيل وتحتته عبارة «رجل العام» وفي طيات المجلة تحقيق طويل حول «غريب» وقاعة «النسر الملكي». يقول المقال انه علاوة على بيع اللوحة الأعلى ثمنا هذا العام في بورصة الفن فإنه قد بيعت خمسة ملايين نسخة منها ومليونين من اللوحات الأخرى وتم تنظيم سبعة عروض لرسامين شهيرين عادت عليهم وعلى صاحب القاعة بأرياح خيالية كما تم بيع تسعين لوحة منها واحدة وعشرون لرسامين من مدرسة «باربيزون» وقد تقرر فتح قاعة في مدينة نيويورك

وأخرى في طوكيو قبل نهاية العام.

في يوم ممطر من أيام فيفري جاءت رسالة باسم السيد غريب علي صاحب قاعة العرض «النسر الملكي» قادمة من تونس سلموها على جناح السرعة إلى غريب فقرأ ختم البريد (دقاش الثالث من فيفري المرسل محرز المستوري عند الهمامي جزار سوق دقاش) فتح الرسالة ويدها ترتعشان وقرأ :

الحمد لله وحده.

دقاش في ٢ فيفري ٢٠٠١

أخي وعزيزي غريب

تحية اخوية صادقة من لسان اخيك محرز جاركم وابن خالتكم مريم. لم اكن اتصور انك تنسانا وتبقى صامتا طول هذه المدة ولم يكن لدينا عنوانك ولاهاتفك وامس كنت بصفاقس وفجأة رأيت صورتك على غلاف المجلة فلم اصدق ولكنني كدت اطير من الفرح عندما اكتشفت انك نجحت واصبحت ذا مال وجاه وشهرة. اما خالتي فاطمة فلا تتصور سعادتها وهي تقبل صورتك وتلتئها وتضمها على غلاف المجلة وهي تدعو لك بالتوفيق وتقول لك هيا اقبلك قبل ان اموت. عذرا أخي غريب ولك تحياتنا وحبنا وإلى اللقاء.

أخوك محرز

لم يشعر غريب الا والدموع تسيل على خديه وهو يتخيل امه تقبله على غلاف المجلة واحس بوخز في قلبه وذنب يخنق انفاسه وفكر : (ما الذي يصدني عن زيارة أُمي الآن. في الماضي لم يكن لدي المال لأدفع ثمن السفر والهدايا ولم انجح في حياتي ودراساتي حتى الماضي القريب وبالمفهوم الإداري. أما الآن والحمد لله فقد كسبت الشهرة والمال وهذان العنصران هما مفتاح او علامة النجاح) !

وعاد إلى حاسوبيه المنتظرين إذ عليه إنهاء ما بدأه هذا الصباح فهو لا يكل ولا يمل من العمل. إنه كالنهر تفجر فسقى الأرض بعد يباسها فغدت جنة خضراء تسر الناظر وتقطر غضارة ونضارة وبهجة. فما الذي يستطيع إيقاف هذا الخير الهائل مادامت الارض تفتح اطرافها القصية لإحتضانه والتنعم بطله ونداه؟!

فتح الحاسوب الثاني فوجد رسالة من السندباد غمرته فرحة عارمة وهو يقرأ تفاصيلها وحمد الله على سلامة صديقه بعد ان كان يتوجس شرا من طول مدة الإنقطاع وتهللت أساريه وهو يقرأ :

«وبعد ذلك قضينا اياما في ضيافة قبيلة تتكلم لغة «الكارو» وعدد أفرادها مائتان وهي لغة عجيبة سوف احكي لك عنها لما اعرفه من اهتمامك الشديد بعلم اللغات وأصولها. ونحن الآن «بدهلي» ولكنني لم التق بالسلطان محمد بن تغلق ولم ار بلاطه ولم يولني القضاء ولم يرسلني في بعثة إلى الصين. وبعد أيام سواصل الرحلة ونمكث بقاليقوت ثم نسير نحو بلاد الصين. بلغ سلامي وتحياتي لكل أصدقائنا وإخواننا وقل لهم ان السندباد بخير ويتمنى لو كنتم جميعا معه.

تحياتي / المخلص.

20

شاعت الأخبار وانتشرت انتشار النار في الهشيم وجابت الصور أرجاء العالم وتسمّر الناس امام الشاشات التلفزيونية بين مصدق وشبهه مكذب واستبشر البعض وبكى الآخرون وهاجوا وماجوا ودمدموا وأرعدوا، وكثرت التعليقات والشائعات والأخبار المفتعلة وألقي القبض على الكثيرين في عواصم عديدة ونشطت التحركات واختلف المحللون السياسيون واجتهدوا في إيجاد حلول وامنعوا في تقصي الأخبار من مصادرها وإستنباط ردود الفعل الأمريكي على العدوان المروع الذي دمر حيا بكامله واسقط آلاف الأرواح البريئة كما قالت المذيعة الأمريكية، وهرعت بعض الدول تباع وتعرض خدماتها الوافرة لمساعدة البيت الأبيض وقررت دول أخرى الدفاع عن نفسها وحماية رعاياها وإعلان حالات الطوارئ تحسبا لأيّ عدوان قد يطرأ. وحذرت جمعيات عديدة من ردود قد تقوم بها أمريكا دون التيقن من هويات وانتماءات الذين قاموا بتدمير البنايات والبنتاغون وازهاق الأرواح بالآلاف.

وتحول العالم بأسره إلى خلية تحليلات ومشاهدات وتمحيص ودرس واستعانة بالخبراء وعلماء الإجتماع والباحثين وغير الباحثين، وتوجس بعض سكان باريس من اقدام امريكا على شن حرب على واجهات عدة وردود فعل همجية قد تجر فرنسا إلى المشاركة فيها مما يجعل الآخرين يدبرون هجمات شرسة ويزرعون قنابل ومتفجرات في مناطق حيوية تجر الوبال وتحصد الأرواح. وانقض كثيرون على المحلات التجارية يشترون الأغذية تحسبا

للحرب وانشغل الكثير منهم بأسهمه في البورصة العالمية واخذوا يبيعونها بأثمان بخسة خوفا من الخسارة الفادحة التي قد تنتاب الأسهم وتتسبب في ضياع مدخراتهم.

جميع الناس في الشرق والغرب ينتظرون رد فعل الأمريكيين على العدوان، كثيرون اشفقوا على البلدان التي سيصيبها وابل من القنابل والقذائف المحمومة والتي ستخلف ضحايا بالآلاف وآخرون ينتظرون الضربات ليرووا غلتهم ويشفوا غليلهم ويثبتوا لكل بلاد العالم ان امريكا العملاق الضخم لا يمكن ان يسكت بل انه سيرد الكيل كيلين ويلجم الاعداء والأصدقاء ويلقن العالم درسا لا يمحي من ذاكرة التاريخ المعاصر.

أما السندباد فقد كان يجوب شوارع «سمرقند» عندما سمع النبا فأصابته قشعريرة هزت بدنه وارتعدت لها فرائصه فستصبح تنقلاته اكثر صعوبة نظرا لما سينجر من حذر عند حدود كل البلدان التي ستخشي على نفسها من كل قادم غريب، وشعر بنوع من الراحة قائلا في نفسه : (رحلتي لا تهمني بقدر ما يهمني هذا الحدث الخطير، هذا اليوم هو منعرج العالم المعاصر وسيصبح نقطة لانطلاق تاريخ جديد وإذا وجب الأمر سأتوقف عن السفر حتى أرى ما سيقع).

خرج من المقهى الذي قضى به ساعتين وتوجه إلى محل صغير لبيعت برسالة عبر الأنترنت إلى صديقه غريب يطمئنه فيها على نفسه وعندما خرج وجد حشدا من الناس يرفعون الأعلام، تغمرهم سعادة بادية وتتعالى بينهم اصوات تكبر. كان يفكر في مرحلته القادمة ويحسب الف حساب مقرا العزم على مواصلة الرحلة طالما كان ذلك ممكنا ما لم تندلع شرارة الحرب بعد. وفي الليل عندما أوى الى غرفته الصغيرة في فندق «سمرقند الصغير» ظل يفكر بترو في مال الأمور وقال في نفسه : «امريكا القوة العظمى عاجزة عن القيام بأي عمل لإستعادة هيبتها. لقد تلقت درسا مهينا وستفهم قريبا بأن العالم لا يحتاج إلى هيمنات مطلقة وان اي قوة معرضة لضربات موجعة. وعليها مراجعة سياساتها تجاه العرب والمسلمين لقد مضى عهد السيطرة ولجم الأفواه وجاء عصر العولمة بمعادلات جديدة فبإمكان كل الشعوب اليوم

ان تنتقم لنفسها بطريقة او بأخرى وطالما لم يتحقق العدل والمساواة ولم تستجب القوى العظمى لنداءات الشعوب الضعيفة والمسحوقة فإنها ستظل هدفا للإنتقام الذي قد يكبر حتى يطال اماكن اخرى من العالم الرأسمالي. واعتقد ان امريكا هذا العملاق المخيف عاجز على خوض غمار الحروب خاصة اذا كان الخصم خفيا ويتحرك على جميع المواجهات ويسدد ضرباته في الظلام».

وفي اليوم التالي قرر السندباد التوغل في المناطق المجاورة مرورا بتركمانيا وطاجكستان قبل ان يتوغل في بلاد الكرغيز وكازاكستان ومنغوليا (بلاد المغول) والصين وبرمانيا ولاوس وتايلندا وبدأ يدرس من جديد أجدى الطرق والمواقع التي سيتوقف عندها والطرق التي سيسلكها والوقت الذي سيمضيه فيها وفكر مبتسما : (انا سعيد الحظ لأنني أجول مناطق العالم قبل حصول الكارثة فمن يدري ! قد تنفجر الحرب النووية ويذهب الجميع إلى الجحيم وتكون نهاية العالم) واطاف : (لدي الوقت الكافي لزيارة هذه البلدان قبل وقوع أي شيء!).

21

وقف منير امام المقهى حائراً وهو ينظر إلى ساعته بين الفينة والأخرى ولم تطل حيرته فهاهو ذا فتحي الأحمر يتمطى ببذلته الزرقاء التي اسودت وفقدت لونها . سلم عليه بحرارة وراعه وجه فتحي الشاحب وعيناه الغائرتان اذ لم يمض زمن بعيد على لقائهما الأخير وكان فتحي موفور الصحة معافى يخالط وجهه ألق محبب ويبتسم من الأعماق . نظر إلى وجهه طويلاً ثم قال :

– أخي فتحي، هل أنت مريض لا سمح الله ؟
انفجر فتحي :

– نعم مريض واكثر من ذلك . ما هي حال انسان مثلي مطلق لا يرى ابنته التي يحبها حتى الجنون وتتخلى عنه خطيبته ويهرب عنه اصدقائه . انا مللت هذه الحياة واصبحت خائفاً على نفسي . طول اليوم اعالج المحركات ولوني اسود كالكلب المريض .

قاطعه منير وهو يقول في نفسه : (ليس هذا الوقت سانحاً لإصلاح عطب سيارتي).

– عافاك الله يا أخي . مالك هكذا ! أنا عهدتك دائم الإبتسام متهللاً وسعيداً !
واصل فتحي وهو ينظر في عيني منير كأنه يبحث فيهما عن حل سحري :
– لا تغرّك المظاهر . صحيح أنا لا اعاني مشاكل مالية والحمد لله فلي صديق اعول عليه اذا ما تعرضت لاي ضائقة فهو انسان مخلص للصدقة بالرغم من اننا لا نلتقي إلا نادراً . ولكن ليس هذا هو المهم . انا على حافة الإنهيار

ومللت حياة مثل هذه.

- لا تقل هذا يا فتحي الحياة امتحان.

قاطعته وابتسامة ذابلة تتراءى على محيّاه :

- امتحان ! لماذا اتعرض انا للإمتحان كل يوم إنها محنة ولا اتمنى لك ما وقع لي. صحيح انك انت ايضا مطلق ولكن طلاقك كان ايجابيا وتم بصورة طبيعية وبالتراضي.

فغر منير فاه واستغرب كيف عرف فتحي هذه التفاصيل مع انه لم يره منذ مدة. صحيح هو حكى له عن الجحيم الذي يعانيه ولكنه آنذاك لم يطلق بعد ولم تهدأ العاصفة التي شنتها عليه زوجته. غريب امر هذه الدنيا. لم تكد امها تموت حتى اصبحت حملا وديعا وكادت تعنذر له عما صدر منها وتطلب إليه العودة إلى البيت ولكن كبريائها غلبها ولم تقدر على التراجع فهذا كل ما بقي لديها. هكذا بموت أمها تغير كل شيء بالنسبة له. اذ بمرور اليوم الثالث تلقى هاتفا أوضحت فيه زوجته أنها تسقط دعواها بخصوص التعويضات المالية الباهضة ولا تحتاج إلى المنحة التي عليه دفعها لابنته وانها تقبل الطلاق بالتراضي. لقد تغيرت الأمور بسرعة مذهلة وورثت هي عن أمها منزلا فخما وسيارة وقطعة ارض صالحة للبناء في بلد آخر وشقة صغيرة في باريس. وبما أنها الوحيدة فقد ورثت كل شيء تقريبا خاصة وان امها هي الأخرى طلقت من زوجها قبل وفاتها بشهرين ودفعت له الملايين حتى يرضى بالطلاق وذهب في حال سبيله مع انه ما إن سمع بموت زوجته السابقة حتى سقط مغشيا عليه فقد ضيع فرصة ثمينة لم يكن احد يدري وقوعها، فهو لو لم تطلقه ولو تنازل قليلا عن غطرسته وعربدته لورث عشرات الملايين. عاد منير لما كان عليه من الدهشة وقال :

- فتحي دع عنك كل هذا وعد إلى الحياة فالمهم هو قضاء فترات طيبة. فما هي قيمة الحياة اذا ضيعنا احسن ما فيها. واهتمنا بما يؤرقنا. اولاً انت حي ترزق وهذه نعمة. تصور حماتي توفيت في لحظات. إنتابتها وعكة قصيرة وما كادت الشمس تغيب حتى كانت في عداد الأموات وهي كانت تصاب بالمرض كل شهرين وكادت تموت عشرات المرات حتى ان العائلة كلها ايقنت

بأنها ستعيش قرنا من الزمان لكن الأمور تسير بعلم الله ولذلك فلا أمان في هذه الحياة وكلنا معرضون لمثل هذه المآسي.

– كلامك منطقي وصحيح غير انني اعاني كثيرا وطاقة احتمالي ليست كبيرة كالكثير من الناس تصور حتى خطيبتني التي حكيت لك عنها مرة ضاعت من يدي وعدت انا لوحدي ولا امل لي في الزواج الآن.

– هون عليك سيفتح الله عليك قريبا والزواج لا يمثل عقبة كبيرة فأنا ايضا أفكر في الزواج والإستقرار. أما الآن فسيارتي لا تريد مواصلة الرحلة معي هي الأخرى.

رد فتحي :

– مالها الا تزال تقفز كالمرة الأخرى؟! لقد عاهدتني انها لن تعود إلى صنيعها معك.

– لا ليس هذا فهي الآن لا تقفز إطلاقا بل احيانا ودون مقدمات يسكت المحرك ولا يهيمه أكان الوقت صباحا او مساء وسط المدينة او خارجها اذا ما كان اليوم صحوا أو ممطرا بعبارة أخرى لا يهيمه إلا نفسه وهو حر.

– حر من هو الحر؟! كلنا عبيد إما عبيد شهواتنا او عبيد الحكام او عبيد المشاكل أو عبيد الحياة نفسها ولذلك فسأكسر شوكة هذا المحرك الكلب اين السيارة؟ اين هي؟ اين هذا المحرك؟

اشار منير إلى السيارة على بضع امتار :

– هاهي ذي السيارة.

– هيا افتح غلاف المحرك. سأشفي غليلي فيه واكسر ضلوعه إذا لزم الأمر.

اشفق منير على سيارته وحاول اطفاء غضب فتحي :

– ألم تأتلك أخبار السندباد؟.

– قال لي صالح انه يبعث برسائله عبر القمر الصناعي والأنترنات فهو سندباد

عصري وأنا الآن استعمل سيارته القديمة فقد تركها لي قبل سفره وهي

«ستروين» من فصيلة «ب إكس» لكنها جيدة فهو قد اشتري سيارة أخرى ذات

عجلات دافعة أمامية وخلفية إنه خطير هذا السندباد فقد حكى لي حكايات

مفرزة وكدت اموت هوسا وهتقت وقتها كما رويت لك ذلك لأخي عمر سلحوف

ورويت له الحكاية فكتب لي حجابا ابعد عني كل الوسواس ولكنني احيانا حينما اتذكر استغرب ولا أجد أي إجابة لما أصابني. اما السر الذي أسره لي فلا احكي عنه لاحد الا اذا أمرني هو بذلك.

- عن أي عمر تحكي؟! عن الشيخ عمر الذي يقطن في «المدينة الجميلة».
- نعم. اتعرفه؟!

- طبعا انه مشهور ورجل طيب تصور ذهبت لأراه وقال لي حينها بأن كربتي ستنفج قريبا وأمرني بالصلاة وأن أكون طاهر البدن طول الوقت واذكر الله كثيرا وفعلت ما قاله لي، وها انا ذا سبحان الله كأنتي اصبحت انسانا غير الذي كنت وتخلصت من كل مشاكلي وخاصة بعد وفاة حماتي ثم أضاف :
- لماذا لا تحدّثه عن حالتك وما تعاني منه ؟

- هو يعرف ذلك وقد وجد الحلّ لكنني انا لست مستعداً لذلك

- صحيح؟! كيف ذلك انت تقول كلاما غير منطقي؟

- انا أقول كلاما هو أصل المنطق وفعلا فأنا لست جاهزا حتى الآن لأطبق ما أمرني به الشيخ عمر.

أخرج فتحي قطعة حديدية لامعة من احشاء المحرك ورمها ثم ثانية. ثم ضرب بالمطرقة لولبا وأخرجه ورماه بعد ذلك بدأ يفك أوصال المحرك والتفت نحو منير :

- أولا هناك مشكلة تقديم وتأخير.

- في اي شيء؟! في المحرك؟!

- طبعا في المحرك وهذا أمر هين هياً نشرب قهوة وبعد ذلك نرى الأمر فبعد ساعة تكون سيارتك كالنمر الشرس.

دخلا المقهى فطلب منير عصير برتقال بينما نظر فتحي ناحية النادل وغمز بطرف عينه :

- هات لي كأسا. كالعادة. وكثيرا من الثلج من فضلك ثم حدق في منير:

- لهذا السبب لا يريد «الشيخ عمر» عمل أي شيء لمساعدتي وهولا يبخل علي بأي مبلغ من المال إذا ما طلبت منه ذلك. اما بخصوص تخليصي من أزمتي النفسية وسوء حظي فهو يقول أن ذلك مستحيل الا بإذن الله طالما

أنا أتناول الخمر كل يوم ولا أكاد أصحو منه.

22

ابتسم جابر ميمون وربت على كتف صالح :

- أخي صالح انا قررت الرحيل من هنا لقد بعث المطعم وقبضت الثمن، لا مكان لي هنا، وسأقضي بقية رمضان مع والدتي فهي وحدها وسأصلي كل الأيام الباقية وأشعر بالفرح والطمأنينة. سنلتقي بعد العيد بعد عودتي.
- أحسنت عملاً ببعدهك عن هذا المطعم فالرزق على الله وسيعوض لك خيراً منه.

-أتريد شيئاً ما أو.....

قاطعته صالح :

- سلامتك...

- طبعا بعد سلامتي ما تريد أن أجلب لك من تونس ؟

ابتسم صالح :

- مع ان صداقتنا لا تحتاج إلى هدايا فبإمكانك ان تحضر لي صحناً تذكاريًا من نهج جامع الزيتونة مثلاً أو قليلاً من السوق الحرّ.

- هذا هين. انت تمزح !!

- لا ابداء، هذا يكفي وانت تعرف ان لدينا كل ما نريده هنا.

- والسندباد كيف أعرف أخباره لقد اشتقت إلى معرفة ما حدث أو يحدث !؟

- لا تخف فهو بخير انه ذكي هذا البشر وكيس ومنبع أسرار لا تنفد.

- هو كذلك ارجو أن يعود معافى ولا تندثر أخباره أو يتلاشى مصيره فيذوب

كالملحة.

- قال فتحي انه سمع من بعض معارفه انه بعث برسالة عبر الأنترنت الأسبوع الفائت.
- إذن كل شيء بخير على الأقل لحد الآن...
- اخرج جابر ورقة من جيبه وقال بصوت خافت :
- صالح هذا صك قديم اعطاني اياه جمال عندما جاء رفقة صديقين له أتذكرُ صديقه الوحش الذي يحتسي النبيذ بشراهة في شهر رمضان الماضي.
- عجب صالح وفغر فاه :
- ولكن ماذا في الأمر وما علاقة الصك بـرمضان!؟
- الصك دفعتَه إلى البنك فعاد لأنه صك من خشب اعني بدون رصيد
- لماذا لم تهتف إلى جمال ليدفع لك بدله!؟
- في الحقيقة لم اكن اريد إزعاجه
- لكنك ستكون مجبرا يوما ما على إزعاجه وعليه الدفع وانا أعرف أنه منظم في حياته ولا يعطي صكوكا دون رصيد وهو وبيقى السر بيننا انسان شحيح ولكنه وفي للصدقة ودقيق في حساباته.
- الأمر غريب بعض الشيء أتريد إعطاءه الصك ونرى الأمر!؟
- طبعا هذا مفروغ منه هات.

في المساء حينما هتف صالح لجمال والتقيا. كاد جمال يصاب بلوثة وهو يفرك يديه ويتحسر ويمشط لحيته بإستغراب وعيناه الصغيرتان تبرقان :

- آه الحمد لله. اتدري يا صالح لما سرقت مني حافظة الأوراق ودفتر الصكوك الذي به ثلاثة وعشرون صكا هتفت للبنك حتى يعترض على دفع أي منها لأي جهة كانت ونسيت بالمرّة أنني أعطيت الصك الثاني لجابر. وبما ان جابر لم يكلمني في الأمر مع اننا كما تعلم نلتقي أحيانا فلم يخطر على بالي ابدًا ان بحوزته صكا لم يدفع وإذن فالخطأ خطؤه هو. كان عليه ان يهتف لي في الحال. وهذا ليس معقولا. آه سأهتف له الآن واسلمه قيمة الصك نقدا.

رد صالح :

- لا ليس الآن الأمر ليس بهذه الخطورة والمبلغ ليس مهما.
- كيف تقول هذا؟! الأمر على غاية من الخطورة. أنا لا أسمح لنفسي ان أسكت لحظة. عليّ اللقاء به تَوّاً حتى ينتهي الأمر فالمال ماله.
- أي مال يا أخي مائتا فرنكا؟! وتسمى هذا مالا
- ولو. حتى ولو كانت عشرة فرنكات أعط لكل ذي حق حقه. أنا مطمئن الآن لأنني فهمت القصة وسأعتذر له أيضا.
- كما تريد يا جمال.
- اذن هيا نذهب لنره...
- أين نراه؟! لقد باع المطعم.
- كاد يغمى عليه :
- باع المطعم. المطعم! ونحن اين سنلتقي بعد الآن. اصبحنا كالأيتام على مآذب اللئام. بكم باعه؟!
- لا أدري. لم أسأله ربما بكل المبلغ ماعدا قيمة الصك.
- الصك لا يضيع لدي المال واريد ان اسلمه المبلغ فكيف العمل؟

23

في ليلة باردة دخل غريب غرفته وفتح حاسوبه فارتسمت صورة كبيرة لرجل طالت لحيته وملأت ابتسامته الشاشة. وقرأ تحتها :

«عزيزي غريب

تحياتي وسلامي. لكي اقف على حقيقة الأمور وأفهم ما أغلق منها قررت ان ادخل شمال البلاد حتى أرى بنفسى ما ستؤول اليه فليس النبأ كالعيان وقد تدوم رحلتي هذه شهرا أو شهرين على اثرهما اعاود بك الإتصال واروي لك ما رأيت وما سمعت. اما انت فستواصل العمل الدؤوب حتى نحقق حلمنا ونقهر اليأس والحرمان ويطوف النسر الملكي سائر الأمصار والبلدان ويعود إلينا احسن مما كان واحذر من افشاء السر الذي بيننا فهو العهد وهو حبل النجاة المتين».

المخلص السندباد

توجس غريب خطرا داهما وقلّب الأمر من جميع وجوهه فأحضر قهوة وجلس يعبث بالفأرة شاردا اللب تتراقص امام مخيلته صور شتى. فتارة يرى نفسه طفلا في الحارة بقريته «دقاش» ومرة في المعهد الثانوي بتوزر وأخرى

شابا يافعا في نهج جامع الزيتونة الذي قطن به سنين وهو طالب وأحيانا بمدينة «تولوز» التي حط بها الرحال عند مقدمه الى فرنسا للدراسة وأحيانا أخرى في اصقاع أفغانستان وتلوجها التي تجلّ الجبال. وثاب الى وعيه قليلا ثم فكّر: «لماذا يريد السندباد القيام بمغامرة مثل هذه وفي هذا الظرف بالذات؟! أين النسر الملكي؟ هل هو الذي دعاه للخوض في هذه المجاهل؟! أو لعله هو الذي سيكون دليله في رحلته تلك. والسر الذي بيننا كيف أفعل اذا ما لحقه مكروه. لمن ترك السندباد وصيته؟ إن الأمور بدأت تشهد تعقيدات لا أدري كيف ستكون وإلى أين ستؤدي».

بعد لأي فتح نافذة من النوافذ العديدة المتدافعة في الحاسوب وكتب رسالة بعثها إلى مؤسسة «النسر الملكي» هذا نصها :

«تحياتي لكم جميعا.

وبعد فأرجو الآ ترسلوا إليّ أي رسالة عبر الأنترنت ولا تحاولوا الإتصال بي عبر الهاتف من اليوم ٢٩ نوفمبر وحتى السابع من ديسمبر فانا مرهق أنشد قليلا من الراحة إنني مطمئن عليكم وأعول على إخلاصكم وحسن تصرفكم.
إلى الأسبوع القادم والسلام»

غريب علي

وأفاق من نومه في الصباح فكانت الشمس ترسل اشعتها عبر الغيوم تتراءى ثم تتضاءل قليلا حتى تختفي. وتمطى ثم ارتسمت على وجهه امارات التعجب والذهول من الأحلام التي طوحت به في كل اتجاه. أحضر القهوة وبدأ في استحضار شريط الأحلام الطويل الذي عاش أحداثه في سباته العميق.

رأى في ما يرى النائم السندباد يتوغل في بلاد الجبال الوعرة والطائرات الأمريكية تقصف السهول والجبال والأودية بوابل محموم من القنابل الثقيلة

تهدّ أركانها وتحدث دويًا هائلًا يشيب له الرضيع. سأل صبيًا يلعب تحت شجرة فأجابهم أنهم يريدون قتل المسلمين. وسأل شيخًا فقال أنهم يريدون قتل المجاهدين ثم سأل جنديًا متأهبًا يحمل بندقية كلاشنيكوف على ظهره فقال أنهم يريدون الفتك بالآخرين. فجأة رأى نسرا ملكيًا ملحقًا في الفضاء مقتربًا منه متوجهًا نحوه فتملكه خوف شديد وحاول الإبتعاد لكن النسر تبعه وغرز مخالبه فيه ثم حمله وارتفع به عاليًا. لم يحس بألم المخالب التي اخترقت جلده بل كان خفيفًا كالريشة مع ان دقائق قلبه تختلج بقوة. لم يدر كم مر من الوقت وهو محمول وبدأ النسر في الهبوط حتى أتى واديًا ذي زرع به شجرة عظيمة ذات فروع ممتدة وأوراق خضراء يانعة لم يرف في حياتها أكبر منها وتحتها وضعه برفق وأناة فإذا به يرى ثلاثة رجال اثنين ذوي لحي طويلة سوداء فاحمة وثالثهما السنديباد بقبعته الجلدية والشاش الأبيض فسلم عليهم وجلس حذوهم.

تفرس في الوجوه فطالعه وجه رآه على شاشة التلفزيون مئات المرات. وجه ليس على وجه البسيطة من لم يسمع به أو يره. وجه يبحث عنه الجميع وجه يبحث عن نفسه وعن وجهه فالكل يبحث عن الكل والسنديباد يتجاذب معه اطراف الحديث هادئًا مبتسما.

فجأة التفت السنديباد نحوه وقال : «أهنئك على السلامة». ثم توجه بالحديث إلى الآخرين :

- هذا غريب علي الذي حكيت لكما عنه البارحة وقد أتى به النسر كما وعدتكما فهو أمامكما الآن وأعتقد أنه علم بحاجتنا إليه فطلب إجازة قصيرة حتى يتسنى لنا اللقاء به والإجتماع إليه. إذ علينا لمّ شتاتنا والتأهب لمواجهة المرحلة القادمة.

24

همس صالح في أذن جابر :

- أنا سعيد بلقائك أنت أصبحت نادرالوجود بعد بيعك للمطعم. متى عدت من السفر ؟

- قبل أسبوع. والله لقد كنت كالأمير هادئ البال لا يشغلني شاغل. أمي ترعاني وكل الناس يحترمونني. يا أخي صالح انا لا أشعر بوجودي ولا أنعم بالراحة الألفي «جرجيس» بين اهلي وفي أرضي خاصة بعدما اشتريت حقلا كبيرا وقطعة أرض واسعة.

- حسنا فعلت لكن أين نلتقي نحن بعدما بعت المطعم اذا تفرق شملنا؟! فإنني انا أيضا سأتزوج.

- تتزوج ما الذي يمنك أو لعلك ستحكي لي حكايات مثل التي حكاها فتحي الأحمر!

- لا. انا لدي ثلاث فرص، الأولى دنماركية اعرفها وطلبت مني الزواج ولم أعطاها الرد. الثانية صينية ولدت وعاشت بأندونيسيا وتدرس بباريس وهي مسلمة، والثالثة فرنسية طلقها زوجها وهي امرأة جديّة ومجربة وهي أيضا تريد الزواج مني.

انفجر جابر ميمون ضاحكا فاحمر وجهه وبدت اسنانه ولمعت جبهته العريضة ثم صفق مطوحا ذراعيه في الفضاء :

- أنت رجل شجاع يا صالح. تزوجهن جميعهن واضف الرابعة وهكذا تجمع

العالم من كل أطرافه.

ابتسم صالح قليلا واجاب :

- أما الرابعة فقد أفلتت مني وأراحني الله منها.

ردّ جابر :

- صالح دعك من الخرافات ليست المشكلة في الفرص. الأمر جدّي عليك

الإختيار وأعمل عقلك وفكر جيّدا فهذا يتعلق بسعادتك ومستقبلك.

- صحيح ما تقوله والله أنا حائر فقد إختلطت علي السبيل.

- إذن أن الأوان لأن تختار وتحسم الأمر. لا تفعل كصاحبنا فتحي الذي

أضاع وقتا طويلا يأمل حتى كاد يجنّ.

- في الحقيقة الدنماركية تكبرني بأربع سنوات.

- ماذا بقي. متى ستنجب أطفالا ؟ لا دعك... منها.

- والفرنسية تكبرني بأربعة أعوام.

- أيضا وايضا. ما هذا الكلام قل لي ان الصينية تكبرك أيضا بأربعة أعوام؟؟

- لا هي عمرها خمسة وعشرون سنة.

دهش جابر وحلّل الأمور بسرعة ثم قال :

- اللهم يسر لنا ما فية الخير.

أضاف صالح :

- أما أنا فأفضل الصينية «سان تران» أولا لأنها تعجبني ولأنها لم تطلب مني

ان أتزوجها بل أنا الذي طلبت منها ذلك.

- وماذا كان ردّها !؟

- قالت لي : أصبر قليلا. مالك تتعجل الأمر.

- والدنماركية ؟

- هي تريد الزواج في أقرب وقت

- والفرنسية ؟

- هي مع أنها تعيش مع إبنتها ذات العشرين عاما وابنها الذي تجاوز

العشرين فهي تريد الزواج في أقرب الآجال.

صمت جابر و تأمل صلعة صالح العريضة وراعه هدوؤه المعتاد وابتسامته

القصيرة وعيناه الصغيرتان اللامعتان.
وأضاف صالح :

- هل تريد أن أحكي لك ما وقع للدنماركية الشهر الماضي ؟
- لم لا اذا كان في الأمر فائدة.
- طبعا الكلام كله فوائد خاصة لإنسان مثلي ليست له تجارب مثلكم.
- ان هات ما عندك من حكايات
- قلت. صديقتي الدنماركية مدرسة بباريس وهي انسانة لطيفة ومنظمة ولكن الذي لا يعجبني فيها انها تتناول الخمر أحيانا وتدخن، مسكينة الوحدة هي التي جعلتها تدخن وطلبت منها أن تُقلع عن هذه العادات السيئة فلم تستجب ولذلك فأنا لا أرى أمّا لأطفالي لا تصلي وتحبسي الخمر وتدخن ثم إنها تعرّفت على دنماركي مجنون.

وضع جابر يده الغليظة على كتف صالح وقال :

- أخي صالح دعك من كل هذا، اسمع جيدا فأنا مجرب وأولادي تجاوزوا العشرين وكل شيء على أحسن ما يرام. سأدلك على امرأة بنت بلدنا تسعى إلى الزواج الحلال وتبحث عن إنسان متزن وهادئ ويحب العمل والجد. وهذه الصفات برأيي تتوفر فيك.
- قاطعه صالح :

- خاصة بعد رحيلي إلى «ليون» حيث سأعمل لمدة شهر ثم سأعود إلى باريس حيث ينتظرنني خلق كثير لأشتغل معهم اي لأقوم بأشغال لديهم وهذا من فضل الله.

ثم قطب حا جبيه العريضين وأضاف :

- لكن من ذلك عليها هذه المرأة التي تناسبني. اين يمكن لي ان اراها !؟
- اصبر. اصبر يا صالح. أأنت الذي يدعو جميع الناس حتى يصبروا يا أخي هذه المرأة يعرفها الشيخ عمر وحكى لي قصتها وقال لي ان صالح هو الشخص المناسب الوحيد.

قال صالح وابتسامة ترسم على وجهه الأبيض :

-أحقا، الشيخ عمر سماني بالإسم !؟

- طبعاً، أتريده ان يسميك باللقب؟!
 - إذن أنسى الأخريات؟!
 - إنس كل شيء الآن. اجمع شتات أفكارك وجهاز نفسك فالأمور ستحدث بسرعة إذا تم الإتفاق.
 سؤال صالح :
 - وما إسمها هذه المرأة ؟
 - فريدة
 - فريدة منصور!
 - نعم هي بالذات، اتعرفها ؟
 - لا. سمعت عنها. صحيح، صديقي فتحي الأحمر هو أيضا يقول انها تناسبني.
 سؤال جابر :
 - لكن لماذا لم يتزوجها هو ؟
 - ليس هذا ممكنا فقد حكى لي فتحي نفسه أنها لم تقبل بالزواج منه لأنه يحتسي الخمر ويدخن وليس مستعدا لتغيير عاداته من أجل الزواج، كما أن الشيخ أمرها وطلب منها الإبتعاد النهائي عن هذه الأشياء وعن الذين يتعاطونها.
 - لها الحق في ذلك. اذن لديك الآن فكرة شبه واضحة عن الموضوع ؟
 - نستطيع قول ذلك. بقي فقط ان أراها وتراني حتى يقتنع كل منا بفكرة الزواج من الآخر.
 ظل لحظة يفكر في نفسه : (لقد سبق أن سمعت بهذا الإسم منذ مدة).

25

أفاق غريب على صوت أت من بعيد وخفقان جناحي النسر الملكي.
وجاءه الهمس رفيقا محببًا كالعادة : «السندباد يقرؤك السلام ويقول لك إن
الرجل الذي ظنوا أنه مات حي يرزق موفور الصحة والنشاط. هذا ما أخبره
به بعض البدو الذين لقيهم في طريقه».

رد غريب بلطف :

- وأنت يا نسري الأثير.
- اطمئن يا غريب يا سيد الغرباء يا سيدي ومولاي
- لا تقل هذا ايها النسر الملكي
- أنا مدين لك فانت سبب وجودي وباعث الأمل في نفوس الملايين من الناس
- العفو يا نسري يا سيد النسور.
- إذن أنا احرسه وارعاه فلا تخف على السندباد فأنا دليله في كل مكان
واذود عنه الأذى وأفتك بمن يريد له الشر.
- ومتى يطيب لنا اللقاء وننعم بتحقيق الأمل والرجاء !؟
- كل شيء يأتي في أوانه. إنني عرفت من الأحداث ما شاب له الرضيع وما
لم يدون في دفتي كتاب وما تعجز الألسنة عن وصفه.
- أعرف ذلك أيها «الملك العظيم»
- وسأحكي لك البعض من هذه الأحداث عندما يحين الأوان، بيد أنني اطلب
منك تحقيق أمنية تلك المرأة الصابرة، المرابطة القانعة التي فارقتها

الإبتسامة منذ عشرين عاما وجفّت مآقيها من فرط البكاء.
انسابت دمعة حرّى على خد غريب كأنه أفاق من غفوة طارئة وردّ في أعماق
أعماق قلبه الجريح :
«أحبك يا أمي كما كنت وكما أنت وكما ستكونين»
احضر قهوة كعادته اعادت إليه النشاط وعدلت مزاجه ثم التقط قمطره ودلف
إلى الخارج قائلاً في نفسه : (بقي لي يومان من الراحة، واليوم علي الذهاب
لزيارة ذلك الصديق الوفي).

26

هتفت فريدة منصور للشيخ عمر وشكرته على مسعاه وعبرت له عن فرحتها بقاء صالح واستعدادها لإقامة مراسم الزواج. أما صديقتها «دانيال» فقد غمرتها سعادة عارمة خاصة بعد أن أكد لها زوجها «سفيان» بأنه يعرف صالح ويعتقد أنه إنسان طيب ليس له مكر من عرفهم في هذه البلاد.

وعاد صالح من مدينة «ليون» وخاطب أمه بالهاتف فشجعتة ودعت له بالخير وأعلم صديقيه صلاح وجابر ميمون بقرب موعد الزواج وطلب منهما إعلام كل الأصدقاء بوزيد، حسّان، الطاهر، المهدي الطيب، جمال، عبد اللطيف، عمار كاراتيه، فيصل، غريب، مازن، فاضل الموسيقار، والصيادي، والفراتي، وشابير وساسي وغيرهم دون ان ننسى سفيان والمنجي وحتى النادل الذي كان يشتغل بمطعم جابر ميمون والذي رآه أخيرا في حي «لافيلات»

وكان يوما مشهودا.

جاءت فريدة منصور ومعها أختها وفتحي الأحمر وصديقه منير وسفيان وزوجته «دانيال» وصديقتها «جاكي» وزوجها «ريتشارد» وبعض النساء الأخريات من قريبات فريدة وصغارهن فكادت القاعة تضيق بهم.

أما صالح فكان يرتدي بدلته البيضاء بربطة عنق خضراء ولم يعد شعره طويلا منفوشا بل قصيرا ممشوطا بعناية فائقة ما عدا صلغته اللامعة. وحوله وقف وجلس كل أصدقائه الذين دعاهم وحتى الذين لم يدعهم. وابتدأ الحفل بالموسيقى الهادئة أول الأمر ثم بعد ساعة تصاعدت واشتدت وتيرتها وحمي الوطيس ورقص من رقص وغنى من غنى وكان الجميع متهللين وصالح يوزع بسماته على الجميع ويتصبب العرق من جبينه. أما فريدة فكانت ترتدي فستانا أبيض طويلا زادها جمالا على جمال وكانت البهجة تتبدى على وجهها وهي جالسة بوقار على الكرسي الذي خصص للعروسين. وبسطت الموائد وأحضر العشاء وكان كل المدعوين يتحركون في فضاء القاعة والبشر يرسم على الوجوه.

وتربعت صحون الكسكسي واللحم والدجاج المحمر والمرق بالزعفران والمفتحات المتنوعة والمشروبات والمياه المعدنية والفواكه والحلويات وأكل الجميع هنيئا مريئا ثم عادت الموسيقى تملك الأرجاء وتضفي على القلوب البهجة والفرح.

وفجأة وقع نظر جمال على فريدة فانقبض وجهه وقف شعر رأسه وكاد يغمى عليه وهو بين مصدق ومكذب. كيف تكون زوجة صديقه صالح هي نفسها المرأة التي منأها بالزواج سنوات وهرب عنها دون رجعة ليتزوج من امرأة في العشرين من عمرها ؟ ماذا إذن لو عرفته وانتبهت اليه. ستكون وقتها المصيبة الكبرى فقد ينتابها الضيق وربما تنفجر في وجهه أو قد تطرده من الحفل أو قد يغمى عليها وتكون الكارثة. وفكر هكذا بعض دقائق ثم أثر الإنسحاب دون ان يقول لصديقه صالح أو يعتذر له. فإن اكتشف صالح هذا الأمر فعندئذ يحكي له القصة اما الآن فليس الوقت سانحا ولا فائدة في إثارة المشاكل فإن الليلة عرس وعلى الجميع أن يفرحوا دون استثناء. ولم يشعر إلا ورجلاه تقودانه نحو الباب وخرج لا يلوي على شيء فلم ينتبه إليه أحد ولم يره أحد فأحس كأنه أطلق من عقال وهو يعجب لهذه المصادفات الغريبة ويقول في نفسه (العالم صغير فعلا !...)

وتواصل الحفل حتى الواحدة ليلا وأخذ صالح الميكروفون وشكر الجميع

على الحضور وبادر بتوجيه شكره دون أن يستثني عائلة عروسه وكذلك غريب علي الذي كان كأنه في حلم والذي كان يفكر في مصير السندباد ويود لو كان حاضراً معهم هذه الليلة حتى تكتمل الفرحة. وأخرج بوزيد آلة العود وبدأ يندندن ويثبت نظاراته على أنفه. وصاح جابر ميمون :

– أخي صالح هذه ليلة العمر. مبروك. ثم أضاف وهو يربت على كتف صالح :
– صالح خذ العود واعزف لنا قليلاً
فهمس له صالح في أذنه :

– لا ليس الآن. اسكت إنهم لا يعرفون بأنني أعزف
– كيف لا يعرفون وانت عزفت أكثر من مائة مرة امامهم !؟
– لا. انا أقصد عائلة العروس وحتى العروس نفسها
– بالعكس هذه فرصة وهم سيزدادون فرحاً إذا رأوك تعزف. إنها أمور رمزية
خذ اليك العود.
وتعالى الهتاف :

– صالح ! صالح ! صالح !
فوقف غريب علي وافترّ عن ابتسامته طويلة وقال :
– دون احراج. أخونا صالح يعبر عن فرحته هذه الليلة وسيعزف لنا مقطوعة
«هذه ليلتي». إنه يعزفها بروعة.

وتناول صالح العود وطفق يعزف وهو يغمض عينيه طويلاً. ودهش الحاضرون خاصة أهل العروس أما فريدة زوجته فقد طربت وشعرت بسعادة كبيرة فهاهي تكتشف بأن زوجها صاحب ذوق رفيع كما اكتشفت بالأمس بأنه يتكلم علاوة على العربية والفرنسية والانجليزية لغات أخرى منها الألمانية والعبرية وحتى لغة الصمت. ويرسم لوحات جميلة. انه نبغ مفاجآت لا ينضب. وفكرت لحظة بينها وبين نفسها : (أراحمي الله من ذلك البشر الذي لا ينفق فرنكا الا بعد حسابات طويلة ولا يشتري بدلة جديدة أو حذاء الا بشق الأنفس ولا يدعوني لحضور حفل أو مشاهدة شريط سينمائي إلا مرة واحدة في العام ذلك اذا لم يخلق ذريعة للإفلات وألف ذريعة حتى لا ينفق فرنكا واحداً...)

27

أنهى جابر ميمون تجهيز وتزويق صالونه الذي سيفتحه بعد يومين في الدائرة الحادية عشرة بباريس. وقد حرص على إحضار بعض الأواني الفخارية من «تونس» وخيمة كبيرة من «جرجيس» حتى يشعر الحرفاء بأنهم غادروا المدينة وارتموا في أحضان الصحراء.

وحمد الله على خروجه من ورطة كادت تؤدي بعقله وأصبح يعجب لنفسه وما آل إليه أمره من تناول الخمر والإدمان عليه ومن مخالطة أهله والمتلهفين عليه لكن أصدقاءه بين راض وساخط ومنهم من شكره على هذه اللقطة الكريمة وهنأه ومنهم من بدأ يعاتبه ويقول : (ونحن ماذا نصنع ؟ أين سنشرب الجعة والنيبيذ وأين سنلتقي ؟)

وكان عقد عزمه بصفة نهائية على الإبتعاد عن الخمر تحاشيا لتعذيب الضمير وابتعادا عما لا ينفعه ولا يحقق له الشعور بالسعادة والراحة. وذكر زواج صديقه صالح فقال في نفسه : (في هذا العام الجديد تحققت عدة أشياء مهمة زواج صالح وفتح الصالون الذي اقتنيتته ولا يزال أمل آخر هو عودة السندباد سالما، أما العام المنقضي فلا رجعة له ويكفي أن يكون انتهى بالضربة التي أرهبت أمريكا وغيرت موازين القوى في العالم هذا ما قاله العقيد المرة الأخيرة وأوافق عليه).

وكان يوم الإفتتاح. فجاء «طاهر» رجل القانون يلبس بدلة جديدة

وشعره الأسود الطويل يمالأ وجهه وعلى عينيه أثبت نظارتيه وهو يبتسم حاملا محفظته السوداء الكبيرة التي كاد ينوء بها وهاهو بوزيد بشعره المجعد ورأسه الكبير وبطنه الضخم صغير العينين يلبس نظارتيه وعيناه الصغيرتان تبحثان في كل مكان عن شيء مجهول. وهل ركب مؤلف من صالح بصلعته الكبيرة وشاربه الصغير وحذائه الضخم وجمال بلحيته الضخمة وبدلته القديمة وحذائه المعروف والمهدي الطيب طويل القامة عريض الجبهة قصير الشعر يضحك وهو يتطلع إلى اللوحات الحائطية وفوزي الطيب النفساني صديق سفيان الذي يتكلم بهدوء ويتطلع في الوجوه ويطوح بيديه كلما اشتد بريق عينيه السوداوين الواسعتين. أما فاضل الموسيقار فكان يوصوص بعينيه السوداوين الضيقتين اللتين ينبعث منهما بريق حاد بشعره أسود قصير وأسنانه بيضاء ناصعة وهو يبتسم ويربت على كتف صالح بتودد ودخل «العقيد» يتبعه المنجي وسفيان، ينوء ببطنه الضخم وبمحفظته وبدأ يتكلم مع الطاهر في موضوع مهم. اما سفيان ذو الشارب الخفيف فقد ظل صامتا وعيناه تحوqlان ولم يبق من جرحه القديم الا أثر ضئيل. وماهي الا ساعة حتى كان الصالون يعج عجيبا بالناس وتوالت كوؤس الشاي والقهوة والعصير والحلويات الشرقية وتساعد دخان «الشيشة» معطرا بالورد والتفاح البلدي الأحمر. وطفقت الموسيقى تملأ الأرجاء ووقف جابر ميمون فدعا الجميع للانصات ثم قال : (ايها الإخوة الأعزاء مرحبا بكم جميعا وأهلا وسهلا في صالون «الوردة». إنكم في ناديكم مبلولون معززون لنفتح صفحة جديدة بطول العام الجديد ألفين وإثنين وأتمنى لكم الصحة والسعادة وشكرا). وصفق الحاضرون ثم انبرى كل منهم لشأن من شؤونه في حديث طويل مع صديق أو مجموعة أصدقاء.

تقدم غريب علي من جابر ميمون وهنأه ثم همس في أذنه :
 - أما انا فأريد أن تضع نسخة من لوحة «النسر الملكي» في الصالون ان هذا المكان أعجبنى مع انني لست من رواد الصالونات وسترى ان عيني النسر الملكي ستجذبان كثيرا من الخلق الى هذا المكان وتشدهم وهذا هو السر الذي لا يعرفه الا السندباد.

- دهش جابر ميمون ثم قال له :
- كيف هذا ؟ انا لا أفهم ما تقول ؟
 - عينا النسر لهما تأثير عظيم على من يراهما . وسترى بنفسك صحة ما أقول.
 - ومتى يتم هذا الأمر ؟
 - ابتداء من الغد سوف تلاحظ بأن معظم من سيرى النسر سيعود لمشاهدته ويشعر بالاطمئنان وهو يجلس في الصالون.
 - إذن أين اللوحة ؟!
 - سأتي بها . أنسيت يوم جئت لتشاهد المعرض ؟؟
 - لا تؤاخذني أخي غريب . حقيقة اذكر اللوحات ولكن لم أشعر بهذا الأمر.

ومن الغد جاء غريب بنسخة من اللوحة وكانت كبيرة أخاذة اختار لها مكانا يراها فيه كل من يدخل الصالون . وكانت فرحة جابر لا توصف إذ أن النسر الملكي رائع بحق ويثير نوعا من الهيبة والوقار والتساؤل .

بعدها سكب الشاي في كأس غريب قال له :

- هل من أخبار عن صاحبنا السندباد ؟
- لم تأتني أخباره منذ أسبوعين .

ردّ جابر قائلاً :

- ارجو ان لا يكون اندثر في الجبال تحت تلك الضربات القاسية .
- لا . لا تخف . هو ليس من الذين يموتون بهذه الطريقة طالما النسر يلزمه .
- عفوا . كيف يلزمه النسر ؟!
- اقصد طالما هو يحظى برعايته ولو من بعد
- كيف يراه عن بعد ؟!
- أعني يؤازره بالعزيمة والثبات والذكاء .
- اصبحت الأمور معقدة . اشرح لي هذا يا غريب ثم هل النسر موجود حقاً كما تتوهم ؟

- ليس الأمر وهما كما تظن يا جابر . غدا وفي مثل هذا الوقت ستري بنفسك افواج الناس يدخلون الصالون ويجلسون ويشاهدون اللوحة . وأنت بإمكانك

القيام بالتجربة فاجلس إذن وحدِّق مليا في النسرة وعندما نلتقي احك لي ما
شاهدت وبماذا شعرت.

- الأمر ليس خطيرا إذن ؟
- أبدا قد يثير الغرابة ويبعث على التساؤل لا غير
- ان اتفقنا ولا أعود إلى السؤال.

28

كثرت الحركة وطفق التقنيون يجهزون آلاتهم ويرتبون الديكور الذي سوف ينطلق منه الحدث وهاهي «ألبن» الجميلة الساحرة تعطي تعليماتها الأخيرة والكل يستمع لها بإعجاب. وما كادت الساعة العاشرة تدق حتى كان كل شيء جاهزا وبعض الحضور كأن على رؤوسهم الطير. إن هذه الحصة المرئية ستبث في جميع انحاء العالم. وكل كلمة ستحلل آلاف المرات وكل لقطة ستشاهد آلاف المرات و«ألبن» تعرف إن السندباد سيكون رائعا وسيكون تحليله للأمر هادئا وذكيا كالسنة الماضية عندما أجرت معه حديثا مطولا قبل رحلتها فقد التقيا بقرطبة واكتشف كل منهما حياة الآخر واهتماماته وود السندباد لو بقي هناك لكن نداء النسر ومشروع رحلته كانا هامين ولذلك فضل مواصلة مغامراته وارجاء اللقاء إلى وقت لاحق. وهاهو ذا يعود من رحلته الطويلة ويؤثر «ألبن» على غيرها ويوافق على إعطاء تفصيلات وإيضاحات حول رحلته وقصته مع النسر الملكي وما حوله. سلطت الأضواء على السندباد فكان يبتسم وعيناه الكبيرتان تدوران في أنحاء القاعة وشاربه الطويل يميل قليلا وعلى رأسه «الكبوس الأحمر» وعلى كتفيه الشاش الأصفر.

سألته «ألبن» بعد أن قامت بتقديمه للمشاهدين :

- سيدي السندباد، انتهت رحلتك الطويلة وهاأنت تعود موفور الصحة مع انك عانيت ورأيت الأهوال وعشت تحت القصف المجنون اكثر من شهر كيف

ترى الأمور وماهي انطباعاتك الأولى ؟

- مساء الخير سأكتفي ببعض الإيضاحات لأن الرحلة كانت طويلة وثرية ومتعددة الجوانب. أولاً الرحلة رحلتان واحدة للبحث عن شيء ما على خطى ابن بطوطة وغيره من الرحالة والأخرى في البحث عن فضاءات جديدة على أنه لو لم يكن النسر الملكي رفيق رحلتي هذه لما عدت سالماً ولانقطع خبري الى الأبد.

أما انطباعاتي فإنني سأعود إلى فرنسا لالتقي «بغريب علي» و«النسر الملكي» ثم ابدأ في تحقيق الرحلة العظمى عما قريب وهذا ما سأفصح عنه في حينه.

وظفقت «البان» تلقي السؤال تلو الآخر والسندباد يردّ عليها جميعاً باقتضاب ومع ذلك فقد حكا حكايات غريبة وروى مشاهدات لا تخطر على بال انسي وعبر بلغة رصينة عن مواقف عاشها لا يصمد امامها الجبابة.

وكانت فرحة «ألبان» لا توصف فقد كان السندباد رائعاً كعادته، وستكون حصتها غنية بتفاصيل لا يعرفها أحد ماعدا السندباد وممتعة كل الإمتاع للمشاهدين في كل مكان. غير ان سؤالاً ظل يتأرجح في ذهنها غامضاً محيراً، هو اللقاء الذي سيجمع السندباد بالنسر وبغريب علي وهذه قمة التساؤل.

وفي صباح اليوم التالي ما كاد غريب يفتح الحاسوب حتى رفر ف جناح النسر وجاء نص الرسالة واضحاً جلياً :

«عزيزي غريب انا في قرطبة بجوار مالكة اللب والفؤاد سابقى أياما قبل قدومنا إلى باريس وسنلتقي بك أولاً ثم بالأصدقاء عند جابر ميمون في محل «الوردة»

تحياتي وإلى اللقاء.

«السندباد»

عجب «غريب علي» لعلم السنديباد بفتح صالون «الوردة» ثم تاب إلى
رشده و تذكر ما قاله لجابر ميمون عندما علق لوحة النسر وطلب منه
مشاهدتها ملياً هكذا اخبر النسر صاحبه السنديباد بكل ما جرى.

كيف لا وهو رفيق الرحلة وصنو روحه؟!
واستبشر خيرا وهو يقول في نفسه (أن الأوان لكشف كل الأسرار إن سرّ
السنديباد تنوء به الجبال ولو عرفوه لا نفجر العالم في الحال ولا نقلبت كل
موازين القوى ولتفتنت كل التكتلات).

ان السنديباد هو ملك العالم دون منازع وهو الوحيد القادر على محق
خصومه والوقوف في جنازاتهم أما كلام الآخرين بمن فيهم العقيد وكل
المحللين السياسيين والإقتصاديين فهو كلام هواء في الهواء.

أما السنديباد صاحب السر الأكبر فسوف لن ينهي رحلاته إذ ما زادت
مغامراته إلا شوقا للخوض في أصقاع أخرى من بقية المعمورة وهو قد صمم
الدخول الى أمريكا العليا والسفلى وكندا وأستراليا وباقي بلدان الأرض.
وسيظل دوما في رعاية وحماية النسر الملكي بل النسر «الملك العظيم»
وسوف يتحدى كل الصعاب ويصد كل المكائد ويقهر كل الأعداء ليحقق العدل
والمساواة والمحبة في العالم وينشر التعاليم القويمة لتعم كل الأرجاء في
انتظار ما سيأتي.

انتهت

بدأت كتابة هذه الرواية يوم 10 جوان 2001 وانتهيت منها يوم 4 فيفري

أشكر : حبيب قمري، علي الشريف، جمال النويري، محمد الخيري،
والبشير مرابط الذين لولاهم لما رأَت هذه الرواية النور.

Maquette et couverture : Mohamed Khiri
© Chahrazad Production - Tél. : 01 42 63 36 09
Site : www.arab-pao.com